القرآن العظيم

وأثره في السلوك القويم

تأليف

د. محمد بن أحمد البدور

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنّ بناء القرآن بألفاظه، كبناء المجتمع بأفراده، ومعاني الألفاظ كالرّوح التي لا تتحقّق حياة الأفراد إلا بوجودها، فإذا أُحسن بناء ألفاظ هذا الكتاب وفق ما حضّ عليه الشّارع، وإذا حسُن فهمه كما وجّه إلى ذلك الشارع، فإنّ لذلك أثر لا بدّ أن يقع على الأفراد، فيتأثّرون ببناء الحروف كما يتأثّرون بمعانيها في انفعالاتهم السلوكية واعتماد الفضائل والقيم في حياتهم كسبيل للتّعامل مع الخَلْق، فيستحقّون وراثة الأرض، يعمرونها بجدّهم واجتهادهم؛ وسلوكهم المشبع بتوجيهات القرآن العظيم الذي يأخذ بأيدي الخلق إلى سبيل الخير والسّعادة.

فالقرآن أنزله ربنا -سبحانه- روحا ونورا وهدًى، ويتحقق ذلك بالتفاعل مع منظومة القرآن التي تبتدئ بتلاوته، وما يترتب عليها من تزكية النّفس وانتشار الصحّة النفسيّة بالمجتمع، ومرورًا بالتفسير الذي

لا بدّ منه لبيان وتجلية المعنى؛ للوقوف على أحكامه وتوجيهاته، ثم بتدبّره؛ حيث إنّ التفسير وحسن الفهم مقدّمة إلى التدبر العميق، الذي يُظهر عظمة هذا القرآن ودقّة نظمه ويجلّي هداياته بقصد التّزكّي بها.

إنّ القرآن هو ملاذ الأمّة، وهو سبيل النّجاة، والطّريق الوحيد إلى حلّ جميع مشاكل الخلق الفرديّة والمجتمعيّة، وقد أصّل القرآن لأمور كثيرة تُعدّ قواعد ثابتة، مثل النتائج التي تعتمد على المقدمات، وتأصيل فكرة الجماعة والاجتماع، ونبذ الفرقة والخلاف، وما يترتب على ذلك من أسباب العزّة والقوّة والمنعة، فبتحقّق فكرة الاجتماع يصبح لكلّ فرد قيمته في المجتمع، مهما بلغت إمكاناته وقدراته، حاله في ذلك كحال حروف هذا الكتاب العظيم، فالحرف القويّ يضفي من قوّته على الحرف الضّعيف، والضّعيف يسند القويّ بما يستطيع، والمجتمع يعتمد في بنائه على المؤسّسات، وهذه المؤسّسات تحتاج إلى الكوادر وأصحاب الكفاءات، ولا يبني هذه الكفاءات ويؤهّلها مثل كتاب الله -تعالى-، فمن تأثّر بإتقان تلاوته وحسن فهمه امتاز بالإيجابيّة، وسعى نحو الإتقان والدّقّة والإبداع، وأدى عمله بأمانة وتحلّى بكريم الأخلاق، فالقرآن خير رافد للمؤسّسات بالكفاءات.

إنّ لإتقان التّلاوة وحسن الفهم أثرًا في المتلقّي، فكلّ علمٍ منهما يؤثّر فيه من حيث السّلوك، فإذا اجتمعا كان الأثر أكمل، وبقدر تفاعل المتلقّي مع القرآن الكريم لإتقان المبنى وفهم المعنى كان الأثر على السّلوك أبلغ...

فأقدّم بين يدي القارئ هذا المختصر الوجيز للوقوف على عظيم الأثر للكتاب العزيز، وهو مختصر لكتاب «القرآن العظيم بين إقامة المبنى وفهم المعنى» الذي صدر عن مركز النّبأ العظيم، فتزيّن هذا الإصدار أيضا بشعار هذا المركز المبارك الذي تحمّل تصميمه وطباعته وتوزيعه ... فالله أسأل أن ينفع بهذا المؤلَّف، وأن يكتب الأجر والمثوبة لكلّ من ساهم بإخراجه.

كتبه: «أبو الحارث»

محمد بن أحمد البور

تمهيد

إنّ من أولويّات معلّم القرآن أن يرغّب النّاس بهذا الكتاب العظيم، ويحفّزهم للإقبال عليه، ويوثّق علاقتهم به.

ولا يتأتّى له هذا إلا إذا تعايش مع القرآن وأحبّه، وتذوّق حروفه واستوعب حدوده قبل إقامتها، فيتفاعل معه بالحبّ والإجلال والتّعظيم، ثم ينقل هذا كلّه إلى من يعلّمهم، ويقيم المجالس معهم، ويدارسهم آيات هذا الكتاب العظيم.

فكلّ مجلسٍ يقيمه معلّم القرآن لا بدّ له من تمهيد وتقديم مشوّق؛ ليهيئ نفوس المتدارسين لاستقبال المعلومات، ويحفّزهم للمشاركة والتّفاعل، والتّمهيد والتّهيئة للمجلس تعتمد على أسلوب المشرف أو المعلّم، ولكنّي أشير في هذا المقام إلى أهمّ الأساليب وأفضلها وأميزها، وكيف لا يكون كذلك وهو أسلوب قرآنيّ وسنّة ثابتة عن النّبي الكريم ﷺ، إنّه أسلوب

طرح الأسئلة، فالمتأمّل لكتاب الله -تعالى- يجده يستجيش المشاعر، ويلفت الأنظار، ويحفّز العقول، ويستثير الهمم...؛ بطرح التّساؤلات.

من الأمثلة على ذلك:

- قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النمل: ٦٢ - ٦٣]

- قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور: ٤٣]

- قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ [الطارق: ٥]

- قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٥]

وهكذا جرت سنّة القرآن، وغلب عليه هذا الأسلوب الذي بات اليوم يُعتمد في التّدريس الحديث، ويُعدّ الأسلوب الأمثل والأفضل.

وكذلك كانت سنّة المصطفى ﷺ الذي تربّى على عين ربّه، وعاش مع آيات كتابه فتمثّلها وحاكى أساليبها.

من الأمثلة على ذلك:

ـ قوله ﷺ: «ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثًا ، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين -وجلس وكان متّكئا فقال-: ألا وقول الزور» قال: فما زال يكرّرها حتى قلنا: ليته سكت.

ـ وقوله ﷺ: «أخبروني بشجرة تشبه أو: كالرّجل المسلم لا يتحاتّ ورقها، ولا ولا ولا تؤتي أكلها كلّ حين» قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنّها النّخلة، ورأيت أبا بكر، وعمر لا يتكلّمان، فكرهت أن أتكلّم فلمّا لم يقولوا شيئًا، قال رسول الله ﷺ: «هي النّخلة» فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنّها النّخلة، فقال: ما منعك أن تكلّم؟ قال: لم أركم تكلّمون، فكرهت أن أتكلّم أو أقول شيئا، قال عمر: لأن تكون قلتها، أحبّ إليّ من كذا وكذا.

ـ وقوله ﷺ: ألا أنبِّئُكُم بخيرِ أَعمالكم، وأزكاهَا عند مليكِكم، وأرفَعِها في درجاتكم وخيرٌ لكم من إنفاق الذَّهب والوَرِق، وخيرٌ لكم من أن تَلْقوا عدوَّكم فتضربُوا أعناقَهم ويَضربوا أعناقَكم؟ قالوا: بلى. قال: ذِكْرُ اللهِ تعالى.»

ومعلومٌ ما لهذا الأسلوب من أثرٍ في تنشيط الذّهن، والحضور بإيجابيّة وتفاعل، ممّا يذهب الملل، ويدفع الكسل، فتحقّق المجالس رسالتها وتعمّ الفائدة، بين المتدارسين، ويتربّوا على البحث والتأمّل.

فهذا الأسلوب يعدّ من أساسيّات أساليب التّدريس، ولا يُستغنى عنه بحال، إلا أنّه قد يضاف إليه من الأساليب المشوّقة بحسب ما يلزم، كالقصّة المناسبة للدرس، أو مناقشة مشكلة واقعيّة تتناسب مع موضوع الدّرس، أو ضرب المثل، وغيره من الأساليب الشيّقة الماتعة الّتي تهيّئ وتحفّز، وهي أساليب لا تخرج عن الأسلوب القرآني، فقد استخدم الأسلوب القصصي، وأسلوب بثّ المعلومة، وذكر أخبار الأمم السالفة، ومناقشة مشاكل واقعيّة، والتّمثيل، وغير ذلك.

فيضاف التّمهيد كتهيئة إلى المباحث الّتي اشتمل عليها هذا المؤلّف الّذي أسأل الله أن ينفع به، وأن يكتب له القبول، فتجتمع فيه تاءات خمس: (التّمهيد، والتّلاوة، والتّفسير، والتّدبّر، والتّزكية)، وبهذا يكون قد توافق مع منهجيّة مشروع «تدارس» الّذي يتبنّاه مركز النّبأ العظيم، ومن هنا كان لي شرف اللقاء بهم، والتّعاون معهم في خدمة كتاب الله العظيم، فالله أسأل أن يجمعنا بالقرآن وأن ينفعنا بالقرآن، وأن يشرّفنا بخدمته، وأن يجعل لنا حظًّا وافرًا في دعوة النّاس إلى هداه وإحياء تعظيمه في نفوسهم، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه.

المبحث الأول

التّلاوة

إتقان التّلاوة وأثر ذلك على النّفس والسّلوك

المطلب الأوّل: تعريف التّلاوة والتّرتيل والتّجويد

التّلاوة: عرّفها ابن فارس، بقوله: «التّاء واللام والواو أصل واحد، وهو الاتّباع. يقال: تَلَوْتُه إذا تَبِعْتَه، ومنه تلاوةُ القُرآن، لأنّه يُتْبِع آيةً بعد آية[1].

وهي تلاوة اللفظ والمعنى، فتلاوة اللفظ جزءُ مسمى التلاوة المطلقة، وحقيقة اللفظ إنما هي الاتّباع، يقال: اتل أثر فلان، وتلوت أثره وقفَوتُهُ وقصصته، بمعنى: تبعت خلفه، ومنه قوله -تعالى-: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾[الشمس: ١، ٢] أي: يتبع، وسمّي تالي الكلام تالياً لأنه

(١) ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريّا القزوينيّ الرازيّ، معجم مقاييس اللغة، ، دار الفكر بيروت، الطبعة ١٣٩٩هـ، تحقيق: عبد السّلام هارون، (١/ ٣٥١).

يُتبع بعض الحروف بعضاً لا يخرجها جملة واحدةً[1].

وهذا هو مقصود القرآن، أن يصل بمن أقبل عليه إلى مرحلة التطبيق، والإذعان لما جاء فيه، ولما بينه مبلغه ﷺ فالقرآن رسالة الله إلى خلقه، جاءت لإخراجهم من الظّلمات إلى النّور: من ظلمات سوء الفهم والاعتقاد الفاسد إلى نور التّصور الواضح والاعتقاد الصّحيح، من ظلمات القول الباطل واللسان المعوجّ إلى نور القول السّديد واللسان القويم، من ظلمات شرّ الأعمال وسيّئها إلى نور خير الأعمال والإحسان فيها.

فلا يُتصوّر أن تأتيك رسالة من والد أو معلّم أو مصلح لا تحمل توجيهاً يرجّى منه الوصول إلى مفاهيم صحيحة وسلوك قويم، فكيف بالموجد خالق الخلق؛ فحبّه وعطفه ورحمته لزم منها أن يبعث بالرّسالة تلوَ الرّسالة، هداية للخلق وأخذًا بأيديهم إلى النّجاة، بسلوك قويم في الدّنيا، يترتّب عليه نجاة من عقاب الآخرة، لمن تنكّب الطّريق وضلّ عن الهدى، فالخالق -سبحانه- أرحم بعباده من أن يتركهم هملا، ومحبّته ظاهرة جليّة برسالته الخاتمة التي أرادها نورًا وحياةً وروحًا للعالمين.

والقراءة بإطلاق يؤجر العبد عليها إذا قصد التقرّب بها إلى الله - تعالى-، ويناله بكلّ حرف منها عشر حسنات، ... وهذا بفضل الله

(١) ابن القيم، محمّد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيّم الجوزيّة الزّرعي الدّمشقيّ، مفتاح دار السّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلميّة، (ص:٤٢).

- تبارك وتعالى-، وببركة هذا القرآن العظيم، لكن المطلوب من القرآن حقيقة أن يبلغ بصاحبه إلى السّلوك والعمل، وذلك باتّباع ما جاء فيه وجعله نبراسا يهتدى به في شؤون الحياة كلّها.

فيفيد معنى التّلاوة: إتْباع العمل للقراءة كما يفيد إتْباع الحرف الحرف، وكذلك إتْباع القراءة بسلوكيّات يكتسبها قارئ القرآن العظيم؛ ويتحصّل عليها من خلال تعلّمه والتزامه بأحكام تلاوة كتاب الله.

التّرتيل: عرّف الرّاغب التّرتيل بقوله: «الرّتل: اتساق الشيء وانتظامه على استقامة، يقال: رجل رتل الأسنان، والترتيل: إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة، قال- تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: ١ - ٤][1].

كما عرّفه الفراهيدي بقوله: «أصله رتل، والرّتل: تنسيق الشّيء، وثغر رتل: حسن المتنضّد، ومرتّل: مفلّج، ورتّلت الكلام ترتيلاَ إذا أمهلت فيه وأحسنت تأليفه، وهو يترتل في كلامه، ويترسّل إذا فصل بعضه من بعض»[2].

---

(١) الرّاغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمّد الرّاغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، دار القلم بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ، تحقيق: صفوان الداوودي، (ص:٣٤١).

(٢) الخليل، الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي البصري، كتاب العين، دار ومكتبة الهلال، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، (١/ ١١٣).

قلت: لفظ (رتل) يدلّ على التّنسيق والتّرتيب، وعلى حسن الأداء إذا قصد بها الكلام، فأصله دالّ على الترتيب في اللغة، فعندما يقولون: (ثغر رتل) أي أسنانه مفلّجة منتظمة، بين كل سنّ وسنّ فواصل دقيقة منسّقة مرتّبة، فإذا قسنا ترتيل القرآن على هذا المعنى، فإنه يفيد: قراءته على ترتيب، نفصّل حروفه بحيث نفرد كل حرف من الحروف بمخرجه وصفاته، وذلك بوجود فواصل دقيقة بين كل حرف في الكلمة الواحدة، إلا أنّها فواصل دقيقة لا تبعث على التلكّؤ في لفظه أو التكلّف في نطقه، أو عدم إظهاره بصورته التي يلزم على قارئه أن يُظهره بها، فتُقرأ الألفاظ القرآنيّة مرتّبة متناسقة.

ويتجلّى في هذا الأداء الدقّة والإتقان التي يتربّى عليها المسلم حين يقرأ القرآن، بحسب ما أراد منزله- سبحانه- أن يُقرأ، مما يوجّه العبد المسلم للعمل بما يعلم متقنًا محسنًا، فالقرآن غايته ومقصده الأعظم؛ هداية الناس في شؤونهم كلّها، يقودهم إلى الخير ويحذّرهم من الشّرّ، فينظّم حياتهم، ويسلك بهم سبيل النجاة، ويوصلهم إلى طريق الآخرة على هدى.

التّجويد: عرّفه الدّاني رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «التّجويد مصدر جوّدت الشّيء، ومعناه انتهاء الغاية في إتقانه، وبلوغ النّهاية في تحسينه، ولذلك يقال: جوّد فلانٌ في كذا، إذا فعل ذلك جيّدًا، والاسم منه الجودة، فتجويد القرآن هو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها مراتبها، وردّ الحرف من حروف المعجم

إلى مخرجه وأصله، وإلحاقه بنظيره وشكله، وإشباع لفظه، وتمكين النطق به على حال صيغته وهيئته من غير إسراف ولا تعسّف، ولا إفراط ولا تكلّف، وليس بين التّجويد وتركه إلا رياضة من تدبّره بفكّه»[1].

والتّجويد سنّة متّبعة، فقد قرأ بالتجويد الصّحابة الكرام- رضوان الله عليهم - وكان نبيُّ الهدى يحبّ القراءة المجوّدة، ويثني على أصحابها، ها هم صحابة النبي ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين أخذوا القرآن بحقّه في كلّ ما يتعلّق به، فتلوه مرتّلا حسب ما أنزل، وأجادوا ترتيله إجادة حتى بلغ وصف بعضهم أنّه يقرأ القرآن كما نزل من السماء، كما وصف النبيّ الكريم قراءة ابن مسعود للقرآن «رطبًا كما نزل من السّماء»[2].

فالقرآن يُتلى تلاوة، وذلك بإتْباع الحروف بعضها بعضًا، كلما انقضى حرفٌ تبعه حرفٌ، ويُتلى مرتّلا بحسب ما أنزل، وفي الترتيل إشارات لسلوكيّات مرجوّة يكتسبها ويتبعها تالي القرآن، ويرتقي باتّباع ترتيله بأخذه عن المحسنين المتقنين له حتّى يبلغ درجتهم ما أمكن ذلك، فيجيد ترتيله كما يَتَّبع المعنى المفهوم من هذه الألفاظ المتلوّة، فيكون القرآن قائده

(١) أبو عمرو الداني، عثمان بن سعيد بن عثمان الداني، التّحديد في الإتقان والتجويد ، مكتبة دار الأنبار بغداد، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، تحقيق: غانم قدوري حمد، (١/ ٧٠).

(٢) أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، المسند، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وجماعة، (١/ ٣٠٩) حديث رقم: ١٧٥، قال عنه الشّيخ شعيب: حديث صحيح.

في شؤونه كلّها، ويتدرّج معه ابتداءً من تلاوته، فترتيله، فتجويده، فتدبّره، ففهمه... والذي يفضي كلّه إلى العمل به وتطبيقه.

المطلب الثاني: آثار إتقان تلاوة القرآن على الصّحّة النّفسيّة

إنّ لبلوغ إتقان قراءة القرآن آثار على التّالي المتقن، حتّى يبلغ بالمقبل على هذا العلم إلى مرحلة يستطيع معها السّيطرة على تصرّفاته؛ من أقوال وأفعال، فيتعامل معها وفق نظام الشّرع) افعل أو لا تفعل) واللافت هنا: الحالة النّفسيّة الّتي يبلغها المرء حين يجد نفسه مرتبطًا مع الموجِد -سبحانه-، منسجمًا مع الوجود دون اضطراب ولا حيرة، ذلك أنّه يعرف أصل وجوده، ويتواصل مع الموجد- سبحانه-، ويتلقّى رسائله، ويقرؤها كإشارات وهدايات وتوجيهات، ليعيش حياة واقعيّة واضحة المعالم ممهّدة الطّريق، ومن هذه الآثار:

أثر القرآن على صحّة النّفس والبدن:

إن كان القارئ من آحاد المسلمين فلا أقلّ من أن يقرأ ما تيسّر له، ليعيش حياة المُستقبِل المأمور بالاتّباع والتّنفيذ؛ والمُوجَّه لسبيل النّجاة، والمحفوظ بحفظ منزّل هذا الكتاب، وأمّا إن كان من أهل القرآن الذين حرصوا على تعلّم القرآن وتعليمه فإنّه يعيش قمّة السّعادة، وتتحقّق في نفسه كلّ معاني الصّحّة النّفسيّة، حينما يستشعر أنّه من خيرة الخيرة، فأمّته

خير أمّة أخرجت للنّاس، وأمّا خصوصيّته في هذه الأمّة فإنّه يصدق فيه قول النّبيّ ﷺ: «خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه»[1] .

إنّ معيّة الله رفعة، وصحبة القرآن طمأنينة، فلا إشكال مع عالم الشّهادة ولا مع عالم الغيب، لأنّ صاحب القرآن محفوظٌ من وساوس الشّيطان، ومن كلّ الآثار السّلبيّة الّتي تقع على الإنسان، عندما يتسلّح بتصوّر صحيح، وقدرة على التّعامل مع هذا الوجود.

وكذلك فإن صاحب القرآن محفوظٌ عقله، بأمر ربه وببركة قرآنه، حتّى في حال غيبوبته أو هذيانه من آفة ألّمت به، والشّواهد على ذلك كثيرة، وقد جاء عن بعض السّلف: (أنقى النّاس عقولا قرّاء القرآن)[2]. وضبطت بالباء (أبقى النّاس عقولاً) فنفسيّة حامل القرآن نفسيّة سويّة، بعيدة عن الوساوس، بعيدةٌ عن الفهم الخاطئ، بعيدةٌ عن الوهن والحزن والتّردّي، فهي نفسٌ مطمئنّةٌ متحفّزة إلى كلّ خير، بل إنّ القرآن يعالج البدن من أمراضه وآفاته، وهذا ثابت بالنّصوص الشّرعيّة والقصص الواقعيّة.

إنّ الصّحّة البدنيّة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالصّحّة النّفسيّة، والطّبّ

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل بن بردزبه أبو عبد الله البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (٦/ ١٩٢) حديث رقم: ٥٠٢٧.

(٢) ابن الباقلاني، محمد بن الطيب بن محمد ابن الباقلاني أبو بكر المالكي، الانتصار للقرآن، دار ابن حزم بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، تحقيق: محمد عصام القضاة، (١/ ٨٩).

الحديث يقرن بينهما للإسراع في العلاج.

إنّ الإنسان مكوّن من جسدٍ وروح، وكلاهما يحتاج إلى غذاء وعنايةٍ ورعايةٍ، فإذا كان

غذاء البدن الطّعام والشّراب، فإنّ غذاء الرّوح كلام ربّنا الرّحيم، وذِكْرُه بما شرع- سبحانه-، وإذا كان الجسم يصبر عن الطّعام مدّة واحد وعشرين يومًا أو يزيد قليلا في آخر دراساتٍ لأهلِ الطّبّ، وعن الشّراب مدّة أسبوع، فإنّ الرّوح لا تصبر عن غذائها، الّذي يبلغ حدّه الطّبيعيّ خمس وجباتٍ في اليوم والليلة، ويصحّ ثلاث وجباتٍ في حالات، تلكم هي الصّلوات الخمس أو الثّلاث في حالة الجمع بين الظّهر والعصر؛ والمغرب والعشاء، الّتي لا تصحّ إلا بتلاوة القرآن، وتحديدًا أمّ القرآن، وما تيسّر بعد ذلك، وإنّ خالق الإنسان وموجده أعلم بما يصلحه وما يصلح له، فشرع هذه الصّلوات لتحيا الرّوح حياة طبيعيّة، وتصحّ النّفس وتطمئنّ، وتحيا حياة سويّة:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

وأمّا من حرم نفسه كلام ربّنا فيصدق فيه قوله- تعالى-: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤].

هذا وبفضل الله -تعالى -حال عامّة المسلمين مع القرآن، فما بالك

بـ(أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصّته) [1] فكلّما ازداد المؤمن من القرآن؛ ازداد صحّة وعافية في سائر شؤونه.

عرّفت منظّمة الصّحّة العالميّة الصّحّة النفسيّة: «هي حالة من العافية يستطيع فيها كلّ فرد إدراك إمكاناته الخاصة، والتكيّف مع حالات التّوتر العاديّة، والعمل بشكل منتج ومفيد، والإسهام في مجتمعه المحلّيّ»[2].

قلت: ما مرّ ذكره عن الصّحّة النّفسيّة، بالإضافة إلى تعلّق النّفس بخالقها وتلقّيها عنه -سبحانه-، يعيشه أفراد هذه الأمّة حينما يجعلون كتاب ربّهم محلّ اهتمامهم، وهو موجّههم ومورد ثقافتهم. ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢] فإذا علمنا يقيناً بأنّ القرآن شفاء كما أخبر ربّنا- سبحانه وتعالى -انتفعنا بتلاوته، وكانت علاجا لما يطرأ على نفس الإنسان من اكتئاب واضطّراب، وحيرة وخوف، وحزن ووهن، فإذا حصل ذلك واستشعره الإنسان؛ يحيا حياة سويّة فيها من الإيجابيّة ما يمكّنه من أداء دوره من البناء والتّطوير، والتّعايش مع الكون وما فيه على أساس العطاء والبذل قبل الانتفاع والأخذ، وذلك لما يؤصّله القرآن في نفوس المؤمنين به من حبّ البذل

(١) ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني، كتاب السنن، دار إحياء الكتب العربية بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (١/ ٧٨) حديث رقم: ٢١٥، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٣٢) (٢١٥٩).

(٢) منظّمة الصحة العالمية / http: //www.who.int.ar

والعطاء والإسهام في البناء، فعلاقة العبد المؤمن مع الناس على أساس النّفع لهم لا الانتفاع منهم.

المطلب الثّالث: آثار إتقان تلاوة القرآن على السّلوك

إنّ القرآن يتدرّج في سلوك متعلّمه مسالك الخير، ويأخذ بأيدي أتباعه إلى أن يصلوا مرحلة التطبيق، فمن إتقان تلاوة القرآن، إلى إتقان في كلّ الأفعال، فيتحقّق أثر القرآن في بناء

الشّخصيّة المسلمة، ثم يظهر هذا الأثر في نهضة الأمّة، فالقرآن ينهض بالأمّة؛ لأنّه حياة الأمّة، والأمّة لا قوام لها بغير وحي السّماء.

من السّلوكيات الّتي يعزّزها القرآن:

أولا: الانضباط

إنّ قارئ القرآن ينضبط بقراءته وفق نظام محدّد في كل حال، سواءً أكان في صلاته أوفي ورده أو غير ذلك، فهذا الانضباط الملازم له يربّي في نفسه حبّ النّظام وترك الفوضويّة، واتّباع قواعد تنظّم كل شؤونه.

ثانيا: الدّقة

إنّ قارئ القرآن يكتسب صفة الدّقّة من قراءته للقرآن؛ ذلك أنّه يراعي الدّقّة أثناء تلاوته مراعاة تامّة، كدقّته في معرفة اللفظ الجائز الوقوف عليه،

واللفظ الجائز البدء به، وكالدّقّة في ضبط مقدار المدّ، فالمدّ له زمن يقدّر بالحركات، فاختيار قدر المدّ والدّقّة في تحديده من مهمّات قارئ القرآن، وممّا يحتاج إلى زيادة في الدّقّة الإتيان بالجزء من الحركة وضبط ذلك، كالإتيان بالروم أو الاختلاس[1].

فهذه الخصيصة لقارئ القرآن ترسّخ في شخصه تحرّي الدّقّة في سائر الأمور، وللمرء أن يتأمّل كمثال على الدّقّة ما بلغه شيخ القراءات والقرّاء: الإمام الشاطبيّ رَحِمَهُ اللَّهُ حيث تجلّت في قصيدته المشتهرة، التي تعدّ مرجعًا أصيلا للقراءات،) حرزالأماني ووجه التهاني(واشتهرت باسم: «الشاطبيّة»، التي جمع فيها القراءات السّبع، مع رواتها، حيث نظم كتاب أبي عمرو الدّاني: التّيسير، وقد أبدع فيها أيما إبداع، واستخدم الرموز للدّلالة على القرّاء والرّواة.

إنّ جهده في هذه المنظومة، ودقّته بالإشارة للقرّاء والرّواة بالرّموز؛ جهد عظيم دقيق، لم يسبقه أحد إلى هذا الأسلوب، وقد شهد له بذلك القاصي والدّاني، وعلى رأسهم محقّق القراءات، الإمام ابن الجزري رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثالثا: الإتقان

وهذه صفةٌ ظاهرة جليّة لدى قارئ القرآن حيث إنّ تلاوته مرتكزها

(١) الرَّوم: هو الإتيان ببعض الحركة (ثلث الحركة)، الاختلاس: هو الإتيان بثلثي الحركة. وهذا خاص بحركتي الكسرة والضّمّ الأصليّتين على آخر الكلمات.

الإتقان، وتعلّم تلاوة القرآن ما هو إلا تعلّم لإتقان هذه التّلاوة، فمتعلّم القرآن يتدرّج في تعلّمه وينتقّل من إتقان إلى إتقان فيما يتعلق بالحروف وإخراجها مستوفية حقّها من المخارج والصّفات اللازمة، ومستحقّها ممّا يطرأ عليها من الصّفات العارضة، فيؤثر ذلك في شخصيّته بحيث يتميّز بهذه الصّفة في حياته، وقد خبرنا من أصحاب المهن والوظائف من أثّر به القرآن فنقله نقلة نوعيّة في حياته ومع عمله ومهنته حيث انسحبت صفة الإتقان على مهنته ووظيفته.

رابعًا: إيقاظ الطّاقات الكامنة في النّفس البشريّة

إنّ متعلّم القرآن مطلوبٌ منه زيادة الاهتمام، وبذل الوقت، وتركيز همّته على تعلّم قراءة كتاب الله- تعالى- ويفاجأ قارئ القرآن بإمكاناته، ويفاجأ بقدراته، وذلك عندما يجد أنّ لديه الإمكانيّة أن يجلس لساعات يتعلّم كتاب الله -تعالى-، ولا يجد في ذلك تعارضًا مع عمله أو ارتباطاته الاجتماعيّة، بل إنّه يستشعر بركة الوقت الّتي يتحصلها ببركة تعلّمه وانشغاله بكتاب الله -تعالى-، فمن كان بالعادة لا يزيد على السّاعة أو أقلّ مع كتاب الله -تعالى-، نجده يجلس مع شيخه لساعات قد تزيد عن الثّمان أو أكثر، طالبا لهذا العلم الرّائق المحبّب إلى النّفس.

فالقرآن يكشف عن حجم الطّاقات الموجودة في النّفس البشريّة إلا أنّها غير مستغلّة، ولا يُتعامل معها بالهمّة، والأعجب من ذلك أن المتعلّم

حينما يبلغ درجة الإتقان ويتحصّل على إجازة من شيخه بأن يقرئ غيره، ثمّ يجلس هو مجلس المعلّم، ليتولّى مهمّة الإقراء، فإنّه يقضي السّاعات الطوال في تعليم كتاب الله- تعالى -ويستغل كل مجلس في ذلك.

خامسًا: تنظيم الأعمال والأوقات

إنّ متعلّم القرآن يدرك أهمّيّة الوقت وأثره في إنجاز الواجبات والمهمّات، وهذا يظهر جليًّا في حياة من عكفوا على كتاب الله- تعالى -واختاروا طريق تعلّمه وتعليمه، فقد بلغ التّنظيم في حياة القرّاء والمقرئين مبلغًا ظاهرًا، وقد تجلّى ذلك في تحديد موعد للمراجعة والقراءة، وأوقات للإقراء، هذا بالإضافة لقيامهم بشؤون دنياهم.

من الأمثلة على هذا السّلوك في حياة القرّاء:

لنا أن نتأمّل سلوك الإمام الفذّ أبي عبد الرّحمن السّلميّ رَحِمَهُ اللَّهُ في تنظيم الواجبات ومجالس الإقراء، فإنّه ظاهر جليّ في سيرته، وقد ورثه عن من سبقه ممن أقرؤوه القرآن، فقد روي عنه أنّه كان يقرئ القرآن خمس آيات؛ خمس آيات، وقد روى عمّن أقرؤوه أنّهم كانوا يقرؤون على رسول الله ﷺ العشر، فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلّموا ما فيها من العمل، فتعلّموا القرآن والعمل جميعا[1].

(١) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الدمشقي، معرفة القرّاء الكبار، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٧، (ص:٢٩).

فترتيبه لهذه الطريقة بالإقراء، يفسح له المجال للتّدارس، والوقوف على ما في الآيات من ذكر وعظات، كما يفسح المجال أمام طلابه للقراءة جميعا، وكذلك يفسح المجال أمامهم لسؤاله عمّا يريدون السّؤال عنه، كما كان حاله مع من قرأ عليهم.

سادسًا: الهمّة العالية

إنّ قارئ القرآن ومتعلّمه الّذي يرتقي بالتعلم ويصبر على ذلك، ليبلغ مرتبة الإتقان في تلاوة القرآن، ويجلس السّاعات طلبًا لذلك، ويمكث الأيّام والليالي متعلّمًا، يطوّر نفسه بالقراءة باستمرار، ويلمس إمكاناته التي كانت خافية عليه بصبره على العلم وببركة القرآن، لا بد أن يوقظ القرآن طاقاته الكامنة، ويوقظ جزءًا منها في نفسه، توقظ فيه الهمّة ببذل المجهود وصرف الأوقات وتوجيه الطاقات لخدمة القرآن وأهله.

فتعلّم تلاوة القرآن يرفع همّة المتعلّم فيصبح صاحب همّة عالية متحفّزة، وهذا ينسحب على سائر شؤون حياته، ترى صاحب القرآن الطاعن في السّنّ يتّقد شبابًا ويباشر من الأعمال والواجبات ما يتأخّر ويقصّر فيه كثير من الشّباب، فالقرآن سبيل إلى الهمّة العالية والنّشاط الدّائب والسّعي الطّموح.

تأمّل همّة الإمام أبي عبد الرحمن السّلميّ رَحِمَهُ اللَّهُ همّة عالية عظيمة، بعلوّ وعظمة هذا القرآن، حيث كان يُحمل إلى مجلس الإقراء في الليلة المطيرة في

الطّين، فقد كان أعمى -رحمه الله-، وممّا يشير إلى هذه الهمّة العالية، التي اكتسبها بفضل القرآن، وتعلّمه وتعليمه، ما رواه بسنده عن عثمان- رضي الله عنه -أنّ النّبيّ ﷺ قال: «خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه»[1]، قال أبو عبد الرّحمن: «فذلك الّذي أقعدني هذا المقعد»[2] .

سابعًا: تقويم اللسان والاهتمام بحسن اللفظ وصحّته

إنّ التّدرّب على اللفظ الصّحيح يورث في نفس المتعلّم الاهتمام بحسن اللفظ، سواءً أكان من حيث الجودة، أو من حيث الحسن وتجنّبه اللفظ السّيّئ، وهذا يتجلّى في حياة صاحب القرآن، وقد خبرت ذلك في أهل القرآن حيث لمست فيهم حسن انتقاء الألفاظ وجودتها، وتجنّب السّيّئ منها ورديئها فيصدق فيهم قوله- تعالى-: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤] .

ومن الأمثلة عند القرّاء على حفظ اللسان والاهتمام بحسن اللّفظ؛ ما رواه لي فضيلة الشّيخ أيمن السّويد -حفظه الله- عن شيخه عبد العزيز عيون السّود -رحمه الله- الذي تخلّق بأخلاق القرآن، أنّه كان إذا أراد أن يؤكّد أمرًا يقول: صدّق، ويكمل ما أراد توكيده ولا يحلف، كما كان إذا أراد أن يحدث عن الله أو رسوله يختار الجملة الاسميّة، كقوله: الله -تعالى-

(١) صحيح البخاري (٦/ ١٩٢) حديث رقم: ٥٠٢٧.

(٢) انظر معرفة القرّاء الكبار (ص:٢٩).

يقول في كتابه، وكقوله: رسول الله ﷺ يقول في شأن كذا...

فتأمّل كيف يرتقي القرآن بصاحبه؛ فيضبط لفظه ويربّيه على اختيار الأحسن منه.

المبحث الثاني

التّفسير

حسن فهم القرآن وآثاره

المطلب الأوّل: ضرورة فهم القرآن

أوّلا: أهمّيّة فهم القرآن:

إنّ القرآن المعجز يجمع بين القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى، وهذان لا يجتمعان إلا في القرآن العظيم، وكلاهما مقصودٌ في تربية الفرد والمجتمع، وحسن فهم القرآن هو السّبيل الصّحيح لاتّباع أحكامه، والاتّعاظ بمواعظه، والتخلّق بأخلاقه.

يقول ربّنا – سبحانه وتعالى-: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧] فالقرآن ميسّر في كل ما يتعلّق به: تلاوته، وحفظه، وفهمه،

والعمل به، وهذا الفهم مأخوذ من نصّ الآية، كما أنّ القرآن هو دستور هذه الأمّة؛ وهو الذي يهديها سواء السّبيل، ويبيّن لها كلّ شيء لتحيا على هدًى ونور، وتحقّق معنى الخلافة في الأرض، فلا يعقل أن تكون رسالة هداية وتشريع وأحكام ولا يفهم ما جاء فيها.

نقل الطبريّ رحمه الله- تعالى- عن بعض أهل التّأويل في تأويل قوله- تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧] «هل من طالب علم أو خير فيعان عليه»[(١)].

ويختلف النّاس في قدرتهم على الفهم، وهذا بحسب قدراتهم وإمكاناتهم، واجتهادهم وبذلهم في سبيل العلم وطلب الفهم، فالله- تبارك وتعالى -قد جعل الخلق متفاوتين في الجمال، والقوّة، والجاه، والسّلطان، وامتلاك المال...، لحكمة يريدها -سبحانه-، ولتستمرّ عجلة الكون في المسير، حيث لا بدّ من تسخير أناسٍ لخدمة أناسٍ آخرين، فمن ملك المال احتاج إلى غيره ليعينه في أعماله وأشغاله، وبالمقابل من فقد المال احتاج للعمل عند من يتحصّل منه على المال، ومن ملك العقل والحكمة احتاج قومه إلى عقله وحكمته في إدارة الأمور وتسييسها.

وصاحب العلم الذي أوتي حسن الفهم، والقدرة على الاستنباط؛ يحتاجه من جهل المسائل، أو احتاج لبيانها وشرحها، وهكذا حتى تكتمل

(١) ابن جرير، محمد بن جرير بن يزيد الآملي الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، تحقيق: أحمد شاكر، (٢٢/ ٥٨٤).

منظومة الحياة، ويقوم كل فرد من أفراد المجتمع بمسؤوليّته، ويقدّم ما يتقن خدمة للمجتمع.

فالقرآن خطاب الله- تعالى- للنّاس كافّة بجميع مستوياتهم واهتماماتهم، فهو خطاب لعموم النّاس، فنزل بخطاب يفهمه من يقرؤه، وكذلك استحثّ فئة من النّاس، ليتدبّروه ويتدبّروا مواعظه ويطلبوا فهمه، ثم خصّ أهل الهمم العالية، والعقول النيّرة المتحفّزة، والقلوب الواعية، والنّفوس المتعطّشة لدقائق العلم ولطائفه، وهذا هو القرآن: ميسّر للذّكر، وهدًى وموعظة للمتّقين، ويعلم تأويله الرّاسخون في العلم.

ثانيًا: الحاجة لفهم القرآن

لّما كان كتاب الله- تعالى- هو العصمة الواقية، والنّعمة الباقية، حجّة الله لخلقه، وحكم الله في أرضه، وفيه القصص الباهرة، والمواعظ الزّاجرة...، لزم البحث فيه وفي معانيه، وتدبّر كل ما يحتويه، فكان طلب فهمه حاجة ملحّة، وتاليًا أذكر ما يدعونا إلى طلب هذا العلم والباعث على استنهاض الهمم للاجتهاد فيه:

البواعث على طلب التّفسير

وأرى أن الباعث على طلب التّفسير يأتي لعدّة أمور، أذكر ما وفّقني الله- تعالى- للوقوف عليه منها:

أولا: محبّة القرآن

إنّ محبّة القرآن من محبّة منزله المنعم- سبحانه-، فمحبّة الكلام من محبّة المتكلّم -سبحانه- والمحبّة باعثٌ على التعلّق وشدّة الاهتمام، فيلزم العبد كتاب ربّه تلاوةً وعلمًا وفهمًا، وبقدر محبّة العبد لكلام ربّه، بقدر ما يحرص على فهمه، وفهم ما جاء فيه، فيصرف همّته إليه، ويشغل فكره فيه، ويستغل شريف أوقاته في صحبته ودراسته.

ثانيًا: شدّة الحاجة إلى فهمه

إنّ القرآن قد أرسله الله- تعالى- هداية للبشريّة، يقودها إلى الرّفعة والسّعادة في الدّنيا، والنّجاة في الآخرة، فيه الشريعة بأحكامها، وعباداتها، وأخلاقها، ومعاملاتها، لتنتظم حياة البشر بموجبها، ولتصطبغ بصبغتها، وإذا كان الأمر كذلك، لزم فهم الكتاب الذي يُعدّ نورًا وهدًى، يُستنار بنوره، ويُهتدى بهداه، حيث إنّ حسن فهم الخطاب عن ربّنا -سبحانه وتعالى- يورث حسن العمل، والفوز برضوانه- تبارك وتعالى- فإنّ من أعظم مقاصد القرآن تصويب سلوكيّات النّاس، وفق توجيهات هذا الكتاب العزيز، ولا يتسنّى لهم ذلك إلا بتعلّمه وفهمه، فكان هذا محلّ اهتمام سلف الأمّة، ولذلك سادوا بالقرآن، أمّا اليوم فقد ذهب اهتمام الناس إلى دقائق في القرآن، كمعرفة عدد كلمات معينّة، وعدد حروف السّور، وأطول آية...، وما شاكل ذلك، ولا أقلّل من شأنها، إلا أن فيها شغل عن الأهمّ،

فالحاجة لحسن الفهم، منبثقة عن الحاجة إلى حسن التّطبيق، فالعمل هو المقصود من العلم، يقول ربّنا- سبحانه وتعالى-: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

المطلب الثّاني: آثار حسن فهم القرآن

إنّ من عقل عن الله مراده، وحسن فهمه لكلامه- سبحانه- تحصّلت له فوائد عظيمة، وكان لذلك من الآثار التي تؤثّر فيه، وتجعله مميّزا بين أقرانه، من ذلك:

أوّلا: تفعيل دور العقل

إنّ القرآن يحفّز إلى استعمال العقل، وجعله السّبيل لبلوغ المقصود، وقد جاءت النّصوص دالّة على ذلك، تؤكّد على استعمال العقل، وإطلاق الفكر في البحث والاكتشاف.

إنّ حسن الفهم لكتاب الله- تعالى- يبصّر العباد بما ينفعهم، ويقودهم إلى سبيل الخير، ويجنّبهم سبيل الشّرّ والهلاك، فأعمل علماء التّفسير العقل، واجتهدوا للوصول إلى معنى كلام الله- تعالى-، فهو المصدر الأساس لكل علوم الشّريعة.

قال المحاسبيّ :» وَأَنّه خاطبهم بِهِ من قبل ألبابهم فَقَالَ {إِنَّمَا يتَذَكَّر

أولُوا الْأَلْبَاب}، وَقَالَ {لقوم يعْقلُونَ} و {لقوم يتفكّرون} لأنّه جعل العقول معادن الحكمة، ومقتبس الآراء، ومستنبط الْفهم، ومعقل العلم، ونور الأبصار، إِليها يأوي كل محصول، وبها يستدلّ على ما أخبر به من علم الغيوب، فبها يقدرون الأعمال قبل كونها، ويعرفون عواقبها قبل وجودها، وعنها تصدر الجوَارح بالفعال بأمرها، فتسارع إلى طاعتها، أو تزجرها فتمسك عَن مكروهها»[1].

ثانيًا: تكوين العقليّة الموضوعيّة الّتي تعتمد المقدّمات للوصول إلى النّتائج

إنّ القرآن بحسن فهمه ينشئ عقليّة موضوعيّة، لا تقبل نتائج بغير مقدّمات، لا تخضع إلا للحجّة والبرهان، والقرآن يؤصّل ذلك في كثير من المواطن، والذي يسلك سبيل علم التّفسير، لا بدَّ له من هذه القاعدة، حيث يعتمد التفسير على مقدمات وأسباب للوصول إلى حسن فهم الخطاب عن ربّ الأرباب.

فعلوم القرآن التي أُلّفت فيها المؤلّفات، إنّما هي في معظمها مقدّمات لبلوغ حسن الفهم لهذا الكتاب العظيم.

---

(١) المحاسبي، الحارث بن أسد أبو عبد الله المحاسبي، فهم القرآن ومعانيه، دار الفكر بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ، تحقيق: حسين القوتلي، (ص:٢٦٦ـ٢٦٧).

ثالثًا: الارتقاء بالعلم وتعظيم شأنه

إنّ تفسير كتاب الله- تعالى- يعتمد على قواعد، وله وسائل وأدوات لا بدّ لطالب هذا العلم أن يتقنها، ويُحسن التعامل معها.

وإنّ ممّا ذكره علماء الأمّة، وعدّوه شروطا ينبغي توافرها لدى المفسّر، وصفات لا بدّ من تحقّقها فيمن تصدّى لهذا العلم، ما يوضّح مدى سعة اطّلاع المفسّر، وتمكّنه من كثير من العلوم للوصول إلى حسن فهم الخطاب عن الله -تبارك وتعالى- .

وهذه الصّفات والشّروط للمفسّر تبيّن مدى إبحاره في العلم، حيث إنّ دراسته للتّفسير سببٌ لطلبه الكثير من العلوم الّتي يحتاج إليها في تفسيره، فيأتي اهتمام طالب فهم كتاب الله -تعالى- بالعلم، ويعظم شأن العلم لديه، لحاجته الماسّة إليه، ليتوصّل إلى الفهم الصّحيح لكلام الله- تعالى-، فمن خلال العلم يصل كل طالب إلى فهم كلام الله- تعالى- .

رابعًا: الاجتهاد و الإبداع

إنّ المفسّر حينما يتحصّل على العلوم الّتي تسعفه في تفسيره، وذلك باجتهاده في تحصيل أكبر قدر من العلوم الّتي تساعده للوصول إلى المراد من كلام الله -تعالى-، كمعرفته لكلام العرب، وعاداتهم، ومعرفة الألفاظ ووجه دلالاتها، ووقوفه على أسباب النّزول، ومعرفته بالنّاسخ والمنسوخ

من آيات القرآن، والمكّي والمدني منها، وغير ذلك ممّا يلزم من الأدوات الّتي يحتاجها في تفسير كلام الله- تعالى-، يجدّ ويجتهد في معرفة هذه الأدوات الموصلة إلى تفسير الآيات، وتظهر نتيجة اجتهاده بوقوفه على معانٍ قد أشكلت على غيره ممّن سبقه، فالقرآن حجة الله الخالدة، ورسالته الباقية، المُصلحة للبشريّة في كلّ زمانٍ، وفي كلّ مكان، فتتجلّى للمجتهد معاني كلام الله -تعالى-، فتأخذه هذه الأمور بالجملة إلى الإبداع، حيث تتكوّن لديه ملكة تمكّنه من الوصول إلى معاني النّصوص، والوقوف على المراد منها، وإن لم تكن ظهرت لغيره، فيفيد اجتهاده بالتوصّل إلى معنى يحتاجه أهل زمانه الّذي يعيش فيه.

المبحث الثالث

التّدبّر

«تدبّر القرآن العظيم والآثار المترتّبة عليه»

بما أنّ فهم القرآن يستطيعه كلّ من تكلّم العربيّة، إلا ما عسر فهمه، ودقّ معناه، فاحتاج إلى المفسّر المتقن المتخصّص، فإنّ من باب أولى أن يكون التّدبّر الّذي يدعو القرآن إليه؛ باستطاعة كلّ من يقرأ القرآن، ويفقه العربيّة، فالرّابط وثيقٌ بينهما، حيث إنّ الفهم الصّحيح من أهمّ وسائله تدبّر هذا القرآن العظيم، كما أنّ التّفسير توطئة للتّدبّر العميق.

المطلب الأول: مفهوم تدبّر القرآن

إنّ التّدبّر خصوصيّة لهذا الكتاب العظيم، فقد جاء التّرغيب فيه بنصّ كتاب الله-تبارك وتعالى-، وظاهر هذا التّرغيب هو عامّ لأمّة الإسلام

جميعًا، كما نلمح من الآيات الواردة بهذا الخصوص، فهي تؤكّد على أنّ التّدبّر لكلّ القرآن بجميع سوره وآياته، مع أنّ التّدبّر يتحقّق في السّور، والآيات، إلا أنّ تحقّقه على الصّورة الأكمل يكون بتدبّره كاملا، وفي هذا لفت للأنظار إلى الاهتمام بالسّياق، والّذي يصبّ في بيان إعجاز هذا القرآن العظيم وعجيب نظمه.

فبتدبّر القرآن، يدرك المتدبّر هذا النّسيج العجيب، الذي لا يستطيعه بشر، فلو لم يكن من عند خالق عظيم عليم حكيم، لوجد المتدبّر فيه اختلافًا كثيرًا، فالمتدبّر للقرآن يدرك أنّه وحدة متماسكة متناغمة، مع أنّه تنزّل خلال ما يزيد على عقدين من الزّمن.

فإذا كان التّدبّر النّظر في أعقاب الأمور والنّظر في تأويلات الأشياء، فإنّ الغاية من ذلك الاجتهاد والبحث للوقوف على حقيقة هذا القرآن العظيم، وليتأتّى اليقين في النّفوس على أنّ هذا الكتاب محكمٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وكذلك العمل بمقتضى هذا الفهم.

المطلب الثّاني: آثار تدبّر القرآن

إنّ للتّدبّر آثارًا كثيرة، منها ما يتعلّق بالقلب وسلامته، ومنها ما يتعلّق بالعمل وصلاحه، وقد جمع ابن القيّم معظم الآثار المتعلّقة بالقلب بقوله:

«وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتّدبّر والتّفكّر، فإنّه جامع لجميع منازل السّائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبّة والشّوق والخوف والرّجاء، والإنابة والتوكّل والرّضا، والتّفويض والشّكر والصّبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة، والتي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم النّاس ما في قراءة القرآن بالتّدبّر، لانشغلوا بها عن كل ما سواها»[1].

يظهر من هذا القول لابن القيم- رحمه الله-، عظيم أثر التّدبّر، وقد شمل معظم الآثار المتعلقة بالقلب، وأذكر تاليا بعض آثار التّدبّر التي أرى فيها أهمّية وفائدة ظاهرة تسهم في تصويب السلوك، والدفع تجاه نهضة المجتمعات ورفعة الأمة، مع مراعاة أن التدبر للخواص والعوام، وكلّ أحد يجد ثمرة هذا التّدبّر:

الأوّل: سلامة القلب

إنَّ اطمئنان القلب صفة سلامة يرجوها كل إنسان، وهي صفة مرتبطةٌ بهذا الوحي، وتعرّض القلب له ودوام مروره عليه {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهَّ أَلَا بِذِكْرِ اللهَّ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: ٢٨] والذّكر اسم جامع لكل ما يذكر فيه الله- سبحانه وتعالى- من صلاة، وقراءة

(١) مفتاح دار السّعادة (١/ ١٨٧).

للقرآن، ودعاء، وتسبيح وتكبير وتهليل...، والصّلاة تشمل هذا كلّه، وجاء النّص القرآني يبين ذلك، قال -تعالى-: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه:١٤] قال الطّبري في تفسيره: «معنى ذلك: أقم الصلاة لي، فإنّك إذا أقمتها ذكرتني»[١].

قلت: وفي الصّلاة ذكر، لا تقوم الصّلاة إلا به، روى مسلم في صحيحه من رواية أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنه قال :»من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خداج «ثلاثاً غير تمام، فقيل لأبي هريرة: إنّا نكون خلف الإمام؟ فقال: اقرأ بها في نفسك. فإنّي سمعت رسول الله يقول: «قال الله- تعالى-: قسمت الصّلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل ... الحديث»[٢]، فدلّ على وجوب قراءة الفاتحة، وما تيسّر من القرآن، وإلا فإنّ الصّلاة غير تامّة.

فإذا كانت القراءة بالفاتحة، أو ما يتيسر من القرآن ركن لا تقوم الصّلاة إلا به، فإنّ الصّلاة من غير قراءة للقرآن، ناقصة غير مكتملة، بمعنى أن الذّكر المشار إليه بالآية غير مكتمل، والنّفع المتحقق بسببه غير حاصل، فعرض القرآن على القلب يصلحه ويحييه، ولا يستغني عنه ولا بحال،

---

(١) تفسير الطّبري (١٨/ ٢٨٣).

(٢) مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، (١/ ٢٦٩) حديث رقم: (٣٩٥).

وحضور القلب في الصّلاة سببٌ لتحقيق الفائدة مما يُقرأ فيها، والصّلاة في هذه الحالة، تحقّق السّلوك المطلوب، والأمر المقصود منها.

الثّاني: التعلق بالآيات ومحبّتها

إنّ التّدبّر يلزمه كثرة التفكر، وترداد الآيات مرارا والتّأمّل فيها، والوقوف عند كلّ جزئيّةٍ منها، وتأمّل كل لفظة، والتفكّر بحروفها، وهذا يستدعي التعلّق والحفظ، ولا أعني الحفظ بمعنى استظهارها فقط، وإنّما الحفظ بمعنى استقرارها في أعماق النّفس، واعتبار ما استقرّ منها في النّفس من النّفائس العظيمة التي يجب المحافظة عليها، والتّلذّذ بترادها كلّ وقت، روى التّرمذيّ في سننه عن أنس بن مالك- رضي الله عنه -قال: كان رجل من الأنصار يؤمّهم في مسجد قباء، فكان كلّما افتتح سورة يقرأ لهم في الصلاة بها، افتتح بقل هو الله أحد، حتى يفرغ منها، ثمّ يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كلّ ركعة، فكلّمه أصحابه، فقالوا: إنّك تقرأ بهذه السّورة، ثم ترى بأنّها لا تجزيك حتى تقرأ بسورة أخرى، فإمّا أن تقرأ بها، وإمّا أن تدعها فتقرأ بسورة أخرى، قال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمّكم بها فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرونه أفضلهم، وكرهوا أن يؤمّهم غيره، فلما أتاهم النّبيّ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان ما يمنعك مما يأمر به أصحابك، وما يحملك أن تقرأ هذه السّورة في كلّ ركعة؟ «فقال:

يارسول الله إني أحبّها، فقال رسول الله: «إنّ حبّها أدخلك الجنّة»[1].

لقد تلذّذَ بالتّلفّظ بها على الدوام، وتدَبَّرَها في كلّ ركعة يركعها بين يدي الله- تعالى - استسلاما وخضوعا، وهذا هو حال آي القرآن إذا تدبّرناه، فإنّ التّدبّر يحتاج إلى مزيد تدقيق وتأمّل، والمرور على الآيات مرارا وتكرارا، للظّفر بالفوائد، فإنّ محبة هذه الآيات تستقرّ في النّفس، ويزداد تعلّق المتدبّر بهذه الآيات، ويتلذّذ بتكرارها، وإعادة تأمّلها مرّة بعد مرّة.

الثّالث: الاستنباط و حسن الفهم

إنّ تدبّر القرآن هو استجابةٌ لأمر الله- تعالى- وتوجيهه- سبحانه-، لتحصيل الفوائد، والوقوف على اللطائف، واستنباط الأحكام، وهذا الأثر للعلماء فيه النّصيب الأكبر.

وبالتّدبّر يتحقّق الاستنباط، فيستنبط المتدبّر الفوائد الجمّة من الآيات، وقد تتميّز سورة بكثرة الفوائد واللطائف المستنبطة منها عن غيرها، كما يتميّز أهل العلم بالاستنباط عن غيرهم، قال -تعالى-: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣] يُفهم

(١) الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة البوغي أبو عيسى الترمذي، الجامع الصحيح، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة ١٩٩٨م، تحقيق بشار عواد معروف، (٥/ ١٦٩) حديث رقم: (٢٩٠١)، وصححه الألباني في تحقيقه لمشكاة المصابيح (١/ ٦٥٧) (٢١٣٠).

من هذا النّص أن الاستنباط خاصّ، وليس للعموم، فقد يستنبط العوامّ بعض الفوائد، ولكن الاستنباط يردّ إلى أهل الاختصاص بنصّ الآية.

الرّابع: الوقوف على الحقائق العلميّة

وهذا القسم أيضاً للعلماء منه الحظ الأوفر، والقسط الأكبر، كما أنه يعتمد على اللون الذي يهتمّ به كل عالمٍ، ولا يمنع أن يصل من يكثر من تدبّر القرآن إلى حقيقة علميّة ثابتة، بفضل تدبّره، لأنّ من ثمرات الانصراف إلى طلب العلم، والانشغال به عن غيره أن يفتح الله على من كان هذا حاله، فالتّدبّر توفيق، وذلك بما يحتاجه من ترك الشّواغل، وتفريغ القلب، وانصراف الفكر، لمحاولة كشف الغطاء عن بعض النّصوص، ومعرفة ما وراءها من الغايات والفوائد واللطائف، ولكن ما يميّز العلماء المهتمّين بهذا الجانب أنّهم ينظرون ويتدبّرون في آيات الله الكونيّة، وهنا يأتي دور التّمايز بين العلماء، حيث يهتمّ بعضهم بالفلك، وبعضهم بالطّبّ، وبعضهم بعلم البحار...، وهكذا.

والغاية من الوقوف على هذه الحقائق العلميّة هي التّعرف على قدرة الله -تعالى- وعظمته، وبيان إعجاز هذا القرآن، الذي هو آية الله العظيمة، الذي أنزله لإقامة الحجّة على خلقه، وكما أنّ الإنسان مدعوٌّ لتدبّر الآيات القرآنيّة، فإنّه مدعوٌّ لتدبّر الآيات الكونيّة، فالحقائق العلميّة الّتي تضمّنها القرآن جاءت في سياق الاستدلال على وجود الله -تعالى-، والآيات

الكونيّة المذكورة في القرآن، جاءت في معرض الحديث عن نعم الله- تعالى-، وتسخيرها لينتفع منها الخلق، كما جاءت للتّذكير والتّنبيه على عظمة الخالق، ووجوده من خلال تأمّلها وتدبّرها.

الخامس: صلاح العمل

إنّ العمل الصّواب الصّالح مرهونٌ بفهم صواب حسن صالح لخطاب الله- تعالى-، فكلام الله -تبارك وتعالى- هو العلم الذي ينبني عليه العمل، وهو الموجّه الأساس لكلّ عمل، قال -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥] فشبّه- سبحانه -الكلمة الطّيّبة بالشّجرة الطّيّبة المثمرة، الّتي يستمرّ ثمرها ويدوم، ويتلذّذ العبد به، فطيب الثّمر ولذّته وبركته، بطيب أصله، بطيب شجرته، الّتي شبّهها ربّنا- سبحانه- بالكلمة الطّيّبة، فحصول الفهم الصّالح للكلمة الطّيّبة، ينتج عنه تطبيق عمل صالح طيب.

قال ابن القيّم: «فشبّه- سبحانه وتعالى -الكلمة الطّيّبة بالشّجرة الطّيّبة، لأنّ الكلمة الطّيّبة تثمر العمل الصّالح، والشّجرة الطّيّبة تثمر الثّمر النّافع»[1].

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية الزرعي الدمشقي، إعلام الموقعين عن ربّ العالمين، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، (١/ ١٣٨).

المبحث الرابع

التّزكية

آثارالقراءة الصّحيحة والفهم الصّحيح في الفرد والمجتمع

إنّ اجتماع حسن الأداء وحسن الفهم، يبلّغ القارئ حقيقة الالتزام بموجب الهدايات لكلّ منهما، فيصل العبد إلى حسن العمل، الّذي جعل منهما مرتكزا ومنطلقا للتطبيق.

فقراءة القرآن، إذا كانت مستوفية للإتقان، وحسن الفهم لكتاب الله – تعالى–، تورث بيانًا لهدايات القرآن، الّتي تفضي إلى العمل والتّطبيق.

المطلب الأول: أثر إتقان التّلاوة وحسن الفهم في الفرد

أولاً: أثرهما في تزكية النّفس

إنّ قارئ القرآن الذي يبذل الوقت والجهد، لتعلّم القواعد الصّحيحة

لتلاوة القرآن، فيتنقّل بين ألفاظ القرآن، ويتقنها لفظا ويحسنها أداءً، ثم يتحفّز لفهم هذه الألفاظ، وتدبّر معانيها، إنّما يحقّق مقصداً عظيماً من مقاصد هذا القرآن العظيم، وهو (تزكية النفس)، قال – سبحانه–: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١].

إنّ تعلّم تلاوة القرآن، والتزام ترتيله، وما يتعلّق بذلك من صفات وقواعد لهذه التّلاوة، والوسيلة الصّحيحة لتلقّي هذه التّلاوة، وتحمّلها، يحمل على تزكية النّفس، وتعلّم الكتاب بما فيه من معانٍ وهدايات يتمّم ذلك، فيتحقّق الاهتداء التام بهذا القرآن العظيم.

– من الأخلاق التّي تجتمع لمتعلّم القرآن

إنّ التّلاوة سبب للتّزكية، حيث يجتمع لطالب هذا العلم مجموعة من الأخلاق، إذ لابدّ له من أن يتّصف بصفات، حتّى يتمكّن من تحصيل هذا العلم، من هذه الصّفات:

(الإخلاص)، هو من أهم الأخلاق الّتي يجب أن يتحلّى بها طالب هذا العلم، حيث إنّه شرط لقبول الطاعة، وكلّ الطاعات تفتقر إلى النّيّة؛ والنّيّة لا تصلح إلا أن تكون خالصة لله، ويركّز أهل القرآن في حلقات التعليم على تربية الطّلاب على هذا الخلق، من خلال التّذكير المستمر في الحلقات والمجالس القرآنيّة.

(التّواضع)، وذلك بتواضعه للجلوس بين يدي الشيخ يتلقّى عنه هذا العلم.

(الصّبر)، ويتمثّل بصبر طالب هذا العلم على شيخه وعلى توزيعه لنوبات القراءة، وصبره على بذل الأوقات والجهد، لبلوغ الإتقان.

(التّعاون)، ويتحقّق بتعاونه مع زملائه بالحلقة، بتهيئة المجلس والخدمة إذا لزم.

(الإيثار)، وذلك بتقديم أحد زملائه على نوبته، وإن كان قد سبقه لظرف معيّن، أو بسبب تقديم الشّيخ بعض التلاميذ، لحكمة يراها، ومصلحة تستدعي تقديمه.

(احترام المواعيد)، وذلك باهتمامه بموعده مع شيخه، وإعطاء هذه المسألة أولويّة وأهمّيّة لا يساوي معها غيرها، فموعده هذا مقدس، وذلك بقداسة موضوعها.

(الوفاء بالعهود)، حيث يتعاهد هذا العلم أداءً بحسب ما تعلّم، ويبذله ويعلّمه للآخرين، وهذا من العهد الملزم، حيث يستمرّ تعليم هذا العلم الشّريف، مع الطّمع بالظّفر بالتّزكية الواردة عن النّبيّ الكريم ﷺ في حقّ من تعلّم هذا العلم وعلّمه.

(ضبط النّفس)، فقد يترتّب على الالتزام بالحلقة إرهاق وضغط، بسبب كثرة الطّلاب، وطول وقت انتظار النّوبة.

(حفظ اللسان)، فالتّلميذ يتأدّب بأدب المجلس، ويقدّر عظمة القرآن الذي عقد المجلس بسببه، كما يقدّر حضور معلّم القرآن، فيحفظ لسانه ويضبط كلامه، حيث لا يتكلّم إلا خيرا.

إلى غير ذلك من الأخلاق الرّفيعة السّامية الّتي يفيدها المتعلّم من مجلس تعليم التّلاوة، هذا بالإضافة إلى ما مرّ معنا سابقًا من السّلوكيّات الّتي يكتسبها متعلّم القرآن، فإنّها بمجموعها تشكّل منظومة من الأخلاق الحسنة الّتي تطرد الأخلاق السّيّئة، فتزكو نفسه، وتتهيّأ لاستقبال العلم، كما أشارت الآية، ثمّ محصّلة ذلك العمل بمقتضى هذا العلم.

فآيات الكتاب الحكيم قد شكّلت منظومة في مبناها ومعناها، تصل بالإنسان إلى العمل والتّطبيق، فالمطلوب تلاوة القرآن تلاوة متقنة، ولا تتحقّق هذه التّلاوة إلا بالتلقّي والتعلُّم عمّن أتقنها، حيث يلزم تعلّمها مجموعة من الأخلاقيّات وتزكية لهذه النّفس، بالإضافة إلى أنّ بركة القرآن تعمل على تزكية النّفس، وبتطهير النّفس من خبائث الأخلاق، وتحلّيها بالحسن والجميل منها، تتهيّأ لاستقبال العلم الربّانيّ، بفهم الخطاب عن الله -تبارك وتعالى-، وتدبّر الآيات واستنباط المعاني، واستكشاف الهدايات، للتّطبيق والعمل بموجب ذلك.

فالتّزكية تنقل النّفس من الشّرك إلى التّوحيد، ومن الرّياء إلى الإخلاص، ومن الشّك إلى اليقين، ومن الكبر إلى التّواضع...، وهكذا مع

بقيّة الأخلاق التي توصف بها النّفوس البشريّة، حيث تنتقل مع القرآن من القبح إلى الجمال، ومن السّوء إلى الحسن.

ـ الأخلاق تمثّل صورة النّفس

وكما أنّ للجسد هيئة وصورة، إمّا جميلة وإما قبيحة، فإنّ للنّفس هيئة وصورة بهذه الأخلاق، إمّا أن تكون جميلة، وإمّا أن تكون قبيحة، والمتتبّع لنصوص القرآن الكريم، يدرك التّركيز الواضح على تكوين الصّورة الجميلة لهذه النّفس، من خلال إبراز مجموعة من الأخلاق، يذكرها القرآن على سبيل المدح، ويرتّب عليها الأجور، ويتحصّل عليها العبد عند إقباله على كتاب الله -تعالى- تلاوة، وبعد إدراكه لمعنى هذه التّلاوة، وحسن فهمه لها، وما أشارت إليه.

أذكر بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر ما أرى أنه يلزم تسليط الضّوء عليها لأهمّيتها:

الأوّل: التّواضع

إنّ القارئ المتقن المتدبّر، المتأمّل لآيات الله- تعالى-، يدرك أن هذه الآيات هي خطاب الله العظيم الكبير المتعال، خاطبه بها، فيستشعر عظمة المتكلّم، ومنزِّل هذا الكتاب، فيخشع ويخضع، وينكسر بين يدي العظيم -سبحانه- متذلّلا، فيورث هذا الانكسار في نفسه تواضعًا لمنزِّل هذا الكتاب، ولعظمة المنزَّل من عجيب النّظم، ومعجز الكلام، وتواضعًا لمبلِّغ

هذا الكتاب، وتواضعًا لعباد الله -تعالى-، بل إنه يتواضع لجميع خلق الله -تعالى- .

والتّواضع خلق الأنبياء والعلماء والمصلحين، وهو يورث نورًا في الوجه، وسمتًا حسنا يعرف به صاحبه.

وإنّ أولى النّاس بهذا الخلق العظيم، من انتسب إلى الخالق ﷻ ، ونال شرف الاتّصاف بالربّانية ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

أولى النّاس بهذا الخلق، من تنقّل بين صفحات هذا الكتاب العظيم، قراءة وتدبرًا وعلمًا، وأسوتهم في ذلك خير من قرأ هذا الكتاب، وتخلّق به، وقد ظهر هذا في حاله ومقاله، وقد تجلّى ذلك حينما طلب من أصحابه ألا يصفوه إلا بقولهم عبد الله ورسوله[1] .

من الآيات الّتي يتأمّلها صاحب القرآن، بالإضافة إلى هذه المعاني، لتقويم النّفس وإبعادها عن أسباب الكبر، والتحلّي بخلق التّواضع:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

(١) انظر صحيح البخاري (٦/ ٥٩١) حديث رقم (٣٤٤٥).

فالإنسان مهما بلغ من العلم، فإنه يَردّ العلم إلى العليم الخبير -سبحانه-، متواضعًا لتوفيقه، بأن بلغ هذه المرتبة، متأمّلا مع هذا الشّعور، ما نبّهت إليه هذه الآية، الّتي تبيّن قلة ما يتحصّله العبد من العلم مهما بلغ.

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [المرسلات: ٢٠] .

إنّ الإنسان مهما حاز من الرّتب في الدّنيا، ومهما حصل من الجاه والسّلطان، إنّما هو بتوفيق الله- تعالى-، وإنّما هو ابتلاء منه- سبحانه-، لينظر أيشكر أم يكفر، وإذا نَزَعت نفسه تجاه الكبر، كانت هذه الآية وشبيهاتها، منبّهة له تذكره بأصل خلقته، تدعوه للتّواضع.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥].

إنّ المال الذي يكسبه الإنسان في الحياة الدّنيا، وكثرة العَرَض، ما هو إلا بفضل من الله، ومنّة منه- سبحانه-، فالإنسان لا طَوْلَ له على كلّ ذلك، لولا منّة الله عليه به، والآية أصل في إثبات افتقار الناس إلى الله -تعالى-، وهو افتقار غير محصور بالمال فقط، إنّما هو افتقار إلى الله -تعالى- من جميع الوجوه.

والنّصوص في هذا الباب كثيرة، منها ما جاء بالتّوجيه المباشر، ومنها ما يحتاج إلى تأمّل للوقوف عليه، فبالتأمّل يستطيع المرء أن يقف على هذه المعاني، وهذه التّوجيهات، فمن تأمّل تواضعه بين يدي شيخه، لتلقّي علم التّلاوة عنه، وبصبّره على طريقته وطبيعته في التّعليم، مزيد تأديب،

وتهذيب لهذه النّفس، والأخذ بها إلى التّخلّق بخلق التّواضع، ثمّ بتأمّل الآيات، وفهم معانيها، بما في ذلك الآيات الّتي تتحدّث عن هذا الخلق، كالّتي مرّت معنا على سبيل المثال لا الحصر، اكتسب المقبل على القرآن هذا الخلق على أكمل وجه، وتأسّى بذلك بسلفه الصّالح، الّذين جعلوا القرآن قائدهم إلى كلّ خير، وموجّههم في جميع شؤونهم.

إنّ التّواضع يعني التّعايش والتّعامل مع الآخرين، وعلى هذا فإنّ خلق التّواضع يصبّ في مصلحة تواصل المجتمع وتكافله، حيث يبعث على التّوازن، فينفي الأنانيّة، وينمّي العمل الجماعيّ، باعتبار أنّ كلّ جزء منه يكمّل الآخر، فيرتقي المجتمع بالحسّ الجماعيّ، وينمو بسبب الصحة النفسيّة، وذلك لعدم احتقار أحد، سواء أكان في شخصه، أو في مهنته، وكذلك لترك الاستكبار والتّعالي، والتّعاون مع الآخرين، فالتّواضع فيه سياسة للنّفس، والمتواضع هو القائد والسّيد في قومه، فالّذي قاد نفسه وساسها، يستطيع أن يقود ويسوس الآخرين.

الثّاني: الأمانة

إنّ خلق الأمانة خلق عظيم، يشرف صاحبه به، ويكفيه شرفًا أنّ فيه تشبهًا بالأنبياء وأهل الفضل، وعلى رأسهم إمام الأنبياء، وسيّد ولد آدم، محمد بن عبد الله- صلوات ربّي وسلامه عليه- حيث اتّصف بهذا الخلق منذ صغره، وظهر عليه ذلك جليّا، عندما عامل النّاس، واتّجر بأموالهم،

وباع لهم وابتاع منهم، وفي هذا إشارة إلى أنّ الله- سبحانه وتعالى- يختار من عباده الأمناء لحمل رسالته، وتبليغ دعوته.

إنّ القرآن يربّي صاحبه على خلق الأمانة، ويؤصّله في نفسه، ابتداءً من تعلّمه لتلاوة هذا الكتاب وطلب إتقانه وترتيله، فالقارئ يراعي كلّ لفظ من ألفاظ القرآن العظيم، بل كلّ حرف من حروفه أن يخرج من مخرجه الصحيح، وأن يؤدّى كما أراد له منزله- سبحانه-، إنّ تلقّي هذا القرآن فيه تحقيق للأمانة، حيث يؤخذ عمّن أخذه بأمانة الله وأتقنه، روى البخاري في صحيحه عن مَسرُوقٍ، قال: ذُكِر عبد اللهَّ بنُ مسعودٍ عند عبدِ اللهَّ بنِ عَمرٍو، فقال: ذاكَ رجلٌ لا أزالُ أُحبُّه، سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: «خُذُوا القرآنَ من أربعةٍ من عبدِ اللهَّ بنِ مسعودٍ - فبدأَ به -، وسالمٍ موْلَى أبِي حذيفةَ، ومعاذ بنِ جبلٍ، وأُبَيِّ بن كعب»[1].

إنّ تعلّم تلاوة القرآن بهذه الطّريقة، يربّي المتعلّم ويؤصّل في نفسه مبدأ الأمانة العلميّة، التي بدورها تربّي النّفس على الصّدق والأمانة، وتبعد صاحبها عن التّلبّس بلباس الزّور والبهتان، وادّعاء ما ليس له، كما تربّي في نفسه تعظيم الميثاق، واحترام العهود الّتي يتعهّد بها، فهي تربّي في النّفس مجموعة متكاملة من المثل والقيم، تندرج جميعها تحت عنوان الأمانة، فبالأمانة لا يدخل على هذه العلم ما ليس منه، ويراعي حامله كلّ

(١) صحيح البخاري (٥/ ٣٦) حديث رقم: (٣٨٠٨).

كبيرة وكلّ صغيرة فيما يتعلّق به، فمن الأمانة ألا يخفي شيئا منه، ولذلك استمرّ بذل هذا العلم وبثّه بين النّاس، منذ الجيل الأوّل الّذي حمل هذه الأمانة، وتحمّل تبليغها على وجهها، غضّة كأنّها نزلت اليوم من السّماء، فالرّسالة أمانة، نقلها أمين الوحي من السّماء، إلى أمين الوحي في الأرض، ونقلها جيلٌ تربّى عليها وعلى مبلِّغها على هذا الخلق العظيم الأميز.

فالأمانة الّتي يكتسبها المتعلّم من القرآن، تفتقر إليها المجتمعات بشكل عامّ، وميزتها شموليّتها، فهي أمانة في الأخذ، وأمانة في التحّمل، وأمانة في الأداء، فطالب هذا العلم يسلك طريقًا محدّدًا، هي طريق المعلّم المتقن، صاحب الإسناد الّذي يأخذ عن مثله، بسلسلة متصلةٍ إلى النّبع الصّافي، إلى نبيّ الهدى ﷺ .

ولمّا يتذوّق صاحب القرآن لذّة التّحمّل، لا تكتمل له هذه اللذة إلا حينما يؤدّي هذا العلم، وينقل هذه الأمانة لغيره من أفراد هذه الأمّة المباركة، ويكون نقله من باب الأمانة العلميّة، فمن مقتضيات الأمانة العلميّة ألا يُكتم العلم، فكيف إذا كان العلم متعلّقا بكتاب الله -تعالى -؟.

فإذا اجتمع لهذا الفهم تأمّل الآيات الّتي جاءت تحضّ على الأمانة، وحفّزت العباد للتخلّق بهذا الخلق؛ تأثّرت النّفس بهذه التّوجيهات الكريمة.

من الآيات الّتي اهتمّت بترسيخ خلق الأمانة: قوله -تعالى-:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] قال الطّبري في تفسيره لهذه الآية: وأولى الأقوال في ذلك بالصّواب ما قاله الّذين قالوا: إنّه عُنِي بالأمانة في هذا الموضع: جميع معاني الأمانات في الدّين وأمانات الناس وذلك أنّ الله لم يخصّ بقوله: (عَرَضْنَا الأَمَانَةَ) بعض معاني الأمانات لما وصفنا»[1].

فالآية تحتمل معنى الأمانة على إطلاقها: أمانة متعلّقة بأوامر الله -تعالى- ونواهيه، وفرائضه، وكلّ ما أرشد إليه فرغّب فيه أو حذّر منه، وأمانة متعلّقة بالبشر وحقوقهم، وأمانة متعلّقة بالنّفس بجلب الخير لها؛ وصرف الضّرّ عنها،... ولعظم شأن الأمانة ولدخولها في كلّ الطّاعات، يجعلها ربنا- سبحانه -يوم القيامة مع الرّحم على جنبتي الصّراط، والنّاس يمرّون بحسب أعمالهم ... قال ﷺ: «وترسل الأمانة والرّحم، فتقومان جنبتي الصّراط يمينا وشمالا ... الحديث»[2].

إنّ هذا الخلق له الأثر الأكبر في أمن واستقرار المجتمع المسلم، كما أنّ له الأثر الأكبر في دعوة غير المسلمين، وقد دخل خلْق كثيرٌ هذا الدّين، لمّا لمسوا هذا الخُلُق عند المسلمين، وفي فقد هذا الخلق خطر شديدٌ على

(١) تفسير الطّبري (٢٠/ ٣٤٢).

(٢) صحيح مسلم (١/ ١٨٦) حديث رقم: (١٩٥).

المجتمع، وشؤمه يمتدّ أثره على الأمّة جمعاء.

انظر إلى العزيزة الكريمة بنسبها، الّتي تنتمي لقبيلة ذات جاه وشرف، لم تشفع لها هذه المنزلة وهذا النّسب، عندما زلّت وخانت الأمانة؛ فوقعت في ذنب عظيمٍ، يمثّل حدّا من حدود الله -تعالى- تلزمه، العقوبة، وذلك حفاظا على صفاء المجتمع ونقائه، وفي مقابل هذه المصلحة العظمى والأهمّ، -مصلحة الجماعة، ومصلحة المجتمع- هانت يد هذه المرأة، ذات النسب،الّتي لنسبها شرف ومكانة بين الناس، ولم يعد لها قيمة عند الله ولا رسوله ولا المؤمنين عندما خانت الأمانة التي فرضها الله تعالى[1] .

فقيل في حقها: كانت ثمينة لمّا كانت أمينة، فلمّا خانت هانت[2].

قلت: وقد يجيب هذا عن تساؤل الكثيرين عمّا حل في أمّة الإسلام، أمّة الخيريّة من بلاء وضعف وهزيمة؟ حيث إنّ هذه الأمّة كانت ثمينة عزيزة على الله، ولها التّأييد والنّصرة لمّا كانت أمينة على رسالة ربّها، فلمّا قصّرت وخانت في حمل وأداء هذه الأمانة هانت.

فبالإقبال على القرآن تعلّما وتعليما، يكتسب المرء هذا الخلق العظيم،

---

(١) إشارة إلى قصّة المرأة المخزوميّة الّتي سرقت في عهد النّبيّ ـصلى الله عليه وسلمـ، انظر صحيح البخاري (٥/ ١٥١) حديث رقم: ٤٣٠.

(٢) ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفداء القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة للنشر، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ، تحقيق: سامي محمد سلامة، (٣/ ١١٠).

العزيز في هذه الأيّام، ويصبح سمتًا له، فهو يتأدّب بهذا الأدب ابتداءً بتعلّم التّلاوة، الّذي تتمثّل فيه الأمانة على الحقيقة، فهو كلام الله- تعالى-، لا يُتلى إلا كما يريد الله -تعالى- له أن يتلى، وتتأكّد الأمانة فيه بتعليمه والالتزام بالأحكام التي تضبطه، ويُتلى وفقها، ومرورا بتأمّل وتدبّر الآيات المتحدّثة عن هذا الخلق الكريم، وحسن فهمها وتأمّل ما أشارت إليه.

الثّالث: الصّدق

إنّ هذا الخلق العظيم له ارتباط وثيقٌ بخلق الأمانة، وإذا ذكر أحدهما ذكر الآخر، وقد كان نبيّ الرّحمة ﷺ يوصف بهذين الوصفين الكريمين.

أثر تعلّم التّلاوة في تحقّق خلق الصّدق

الصّدق صفة لازمة لمبلّغ رسالة الله- تعالى-، كما أنّ الأمانة صفة لازمة له، وأهل القرآن مبلّغون وناقلون لهذه الأمانة العظيمة، فلا يصحّ منهم إلا أن يتحلّوا بهذه الصّفة، وهم يكتسبون هذه الصّفة العظيمة بإقبالهم على كتاب الله- تعالى-، حيث إنّ تعليم كتاب الله -تعالى- يكسب المتعلّم له تصويبا للفظه، وتقويما للسانه، اللسان هذا العضو الخطير في جسم الإنسان، روى الإمام أحمد في مسنده عن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- أنّه سأل رسول الله عن عمل يدخله الجنّة، ويباعده من النّار؟ فذكر له النّبيّ الكريم ﷺ أمورًا تحقّق له سؤله، ثمّ بيّن له ملاك ذلك كلّه بوصيّة جامعة، فقال له: «ألا أخبرك بملاك ذلك كلّه؟» فقلت: بلى يا نبيّ

الله، فأخذ بلسانه، فقال: «كفّ عليك هذا»، فقلت: يا رسول الله، وإنّا لمؤاخذون بما نتكلّم به؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وهل يَكُبُّ النَّاس في النَّار على وجوهِهِم، أو قال: على مَنَاخِرِهِمْ، إلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»[1].

ففي هذا الحديث إشارةٌ إلى أنّ هذا العضو من جسم الإنسان هو المسؤول عن الكلام، بصفة خاصّة، فاللسان مرنٌ وكثير الحركة في داخل الفم عند النّطق، وتكون حركته بما يتناسب واللفظ.

ويشهد لذلك أيضا ما رواه الترمذي في سننه عَنْ عُقْبَةَ بنِ عامرٍ، قال: قلتُ: يا رسولَ الله ما النَّجاةُ؟ قال: «امْلِكْ علَيك لسانكَ، ولْيَسَعْكَ بيتك، وابْك على خطيئتِك»[2].

ففي الحديثين دليلٌ على أنّ اللسان هو آلة النّطق، وتعليم التّلاوة يعُنى بهذا العضو المهمّ حيث تقع عليه وعلى الأعضاء المجاورة له أهمّ مباحث علم التّجويد، مبحث مخارج الحروف وصفاتها، حيث إنّ اللسان يشكّل العضو الرّئيس الّذي تخرج منه معظم الحروف، وله علاقة مباشرة في تطبيق صفاتٍ لازمةٍ لجميع الحروف، مثل الاستعلاء والاستفال، وغيرها، وكذلك الصّفات العارضة، كالتّفخيم والتّرقيق.

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣٦/ ٣٤٥) حديث رقم: (٢٢٠١٦) قال عنه الشّيخ شعيب: حديث صحيح.

(٢) سنن التّرمذي (٤/ ٦٠٥) حديث رقم: (٢٤٠٦) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٥٥١) (٨٩٠).

والقارئ حتّى يبلغ رتبة الإتقان لا بدّ له من مراقبة هذا اللسان، والتّدقيق في كلّ ما يصدر عنه من الألفاظ، وكيفيّة أداء هذه الألفاظ، هذا اللسان الذي باستقامته تستقيم باقي الجوارح، وباعوجاجه تعوجّ باقي الجوارح، روى التّرمذيّ في سننه عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ، رفعه قال: «إذا أصبح ابنُ آدمَ فإنَّ الأعضاءَ كلَّها تكفِّرُ اللِّسانَ فتقولُ: اتَّقِ الله فينا فإنَّما نحنُ بكَ، فإن استقمتَ استقمنَا وإن اعوججْتَ اعْوَجَجْنَا»[1].

فلأحدنا أن يتأمّل هذا الاهتمام وهذه الدّقّة، وما يترتّب على ذلك من أثرٍ في مراقبة ما يصدر عن هذا اللّسان من ألفاظ في سائر الكلام، وفي سائر الشّؤون وبشكل عام، فلسانٌ هذا حاله، يُقوَّم ويُصوَّب في لفظ كلام علام الغيوب، وينتظم ليلفظ ألفاظ القرآن وفق ما أراد الله لها أن تلفظ مرتّلة مجوّدة، لا بدّ له أن يُراقب لفظه في سائر الكلام، حيث يتربّى على صحّة اللفظ، وعلى أن يكون لفظه صوابا، ومن أهمّ ما يلزم هذا اللسان الذي تجمَّل وتزيَّن بلفظ كلام الله -تعالى- لفظا صحيحًا متقنًا، أن يتحلّى باستقامته على الصّدق، وتجنّبه للكذب.

وتمرّ بقارئ القرآن الآيات الّتي تتحدّث عن هذه الصّفة، وكيف أنّها صفة للمؤمنين، وأنّ المؤمنين هم الّذين يصدُقون الله -تعالى- ببرّهم

(١) سنن التّرمذي (٤/ ٦٠٥) حديث رقم: (٢٤٠٧) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ١٢٥٩) (٣٥٢).

وطاعتهم له، والتقرّب إليه بكلّ ما يرضيه عنهم، وبذل الغالي والنّفيس في سبيل ذلك.

قال -تعالى-: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

أهل الصّدق هم رجال الحقّ، وهم الرّجال حقًّا، صدقوا العهد مع الله، فكانوا هم المؤمنين، وخالفوا المنافقين الّذين نقضوا الميثاق، وكذبوا ما عاهدوا الله عليه.

والصّدق تطمئنّ إليه النّفس، ولا تتكلّف للنّطق به، على خلاف الكذب الذي تضطّرب النّفس عند النّطق به، ولا يزال الّذي يكذب يعيش القلق من أثر الكذب، روى التّرمذي في سننه من رواية أبي الحوراء السّعديّ قَالَ: قلتُ للحسنِ بن عليٍّ: ما حفِظْتَ من رسول الله؟ قال: حفِظتُ من رسول الله ﷺ: «دعْ ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ، فإنَّ الصِّدق طمأنينةٌ، وإنَّ الكذبَ رِيبَةٌ»[(١)] .

خلاصة:

إنّ من اجتمعت له صفات التّواضع والأمانة والصّدق، وأَوْلاها اهتمامًا خاصًّا بالإضافة إلى باقي الأخلاق الحميدة ساد، وحُقّ له أن

(١) سنن الترمذي، (٤/ ٦٦٨) حديث رقم: (٢٥١٨) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٣٧) (٣٣٧٧).

يسود، فقد كانت هذه صفات القائد القدوة ﷺ، الّذي نتأسّى به في سائر شؤون حياتنا، وقد ساد الجيل الأوّل لمّا تحلّوا بهذه الصّفات، متأسّين بخير البريّات، عليه من الله أزكى الصّلوات.

ثانيًا: أثرهما في ضبط السّلوك

إنّ القرآن يحمل من المعاني العظيمة الموجّهة لأحسن الأخلاق، وأفضل السّلوك الّذي يريده الله -تبارك تعالى- للبشر أن يسلكوه، فألفاظ القرآن تحمل من المعاني ما يحتاجه بنو البشر في كل شؤون حياتهم، وما يتزوّدون به لآخرتهم ليكون سببًا لنجاتهم، وفوزهم برضا ربّهم- سبحانه وتعالى- .

بحيث تصبح هذه السلوكيّات راسخة في نفس من جعل كتاب الله -تعالى- محلّ اهتمامه، ومصدر ثقافته، فالقرآن العظيم يؤصّل في النّفس قوّة الإرادة، للتّحكم في الذّات وضبط السّلوك والتّصرفات.

١ـ أثر إتقان التّلاوة و صحّة الفهم في الإتقان

إنّ الذي أتقن قراءته بتخليص الحروف والحركات، وإعطاء كلّ حرف حقّه ومستحقّه من الصّفات اللازمة والصّفات العارضة، وراعى الإتقان في سائر تلاوته، ثمّ مرّ على الآيات الّتي تتحدّث عن هذه الصّفة، لا بدّ أن يتأثّر بهذا السّلوك وأن يعمل بموجبه، ومن أهمّ الآيات الّتي تشير

إلى هذا السّلوك المهمّ: قوله- تعالى-: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨] قال ابن عطيّة في تفسيره: (الإتقان): الإحسان في المعمولات وأن تكون حسانا وثيقة القوّة»[(١)].

والقرآن يريد من قارئه أن تكون هذه صفة أصيلة مستقرّة في نفسه، لا تفارقه ولا بحال، ابتداءً بإتقان تلاوته، ومرورًا بإتقانه لحسن الفهم، وانتهاءً بإتقانه كلّ عمل.

٢ـ أثر إتقان التّلاوة وصحّة الفهم في سلوك الانضباط

إنّ قارئ القرآن يقدّر الوقت ويضبطه بكلّ عناية، حتّى أنّه يراعي الجزء من الحركة، فقد يحتمّل تطبيق الرّوم أجزاءً من الثّانية، والمدود قد يحتمل تطبيقها ثانية وأكثر، كما يضبط المساواة بين المدود، لتظهر القراءة غاية بالانسجام والانتظام، يستسيغها السّامع، وتقع عنده موقع القبول، والتلذّذ بسماعها، والتأثّر بها، فإنّ في ذلك دعوة لانضباطه في شؤونه كلّها، ويكتمل تأثّره ويزداد اهتمامه إذا مرّت به الآيات التي تتحدّث عن الضّبط والانتظام، مثل قوله-تعالى-: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا

(١) ابن عطية، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن المحاربي الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، (٤/ ٢٧٣).

وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} [النساء: ١٠٣] قال البيضاوي في تفسيره: إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتابًا مَوْقُوتًا فرضًا محدود الأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها في شيء من الأحوال»[١] .

٣ـ أثر إتقان التّلاوة وصحّة الفهم في تفعيل الطّاقات الكامنة

إنّ قارئ القرآن يفرح باكتشافه، لطاقات كامنة في نفسه، ظهرت له من خلال إقباله على هذا الكتاب المبارك، وذلك بصبره على تلقّي العلم، وزيادة ورده، والعجيب أنّ النّفس تطيب بهذا البذل، فتدفع بالقارئ إلى بذل المزيد من الجهد والوقت، فيظهر له أنّ عنده من الإمكانات والطّاقات، ما يجعله يقدّم المزيد والمزيد، فإذا تأمّل معاني الآيات الّتي ترفد هذا السّلوك كقوله -تعالى-: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [التّوبة: ١٠٥] فإنّ الآية تشير إلى أنّ العمل مطلوبٌ من جميع أتباع هذا النّبيّ الكريم ﷺ[٢] .

وإنّ ظاهرالعمل المقصود هنا هو العبادة، إلا أنّها العبادة بمعناها

---

(١) البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، (٢/ ٩٤).

(٢) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر الخزرجي القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (٨/ ٢٥٢).

الشّامل، الّذي يوجّه إليها القرآن العظيم: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

٤ـ تأثير إتقان التّلاوة وصحّة الفهم في حصول الهمّة

إنّ هذا السّلوك مرتبطٌ بالّذي سبقه، حيث إنّ الّذي تتجلّى له هذه الطّاقة الكامنة، الّتي لم يكن يدركها من قبل، أو كان مقصّرًا فيها، تنبعث في نفسه أسباب الهمّة، فيستسيغ كلّ صعب.

والهمّة قد تكون موجودة أصلا في نفوس البعض، هبة من الله، إلا أنّ هذا الخُلُق، كباقي الأخلاق يُكتسب ويُنمّى.

إنّ متعلّم القرآن، إذا قصرت همّته لم يبلغ مرتبة السابقين في الخيرات، ولم يحقّق صفة الربانيّة، ولم يشرف بإرث النّبيّ الكريم ﷺ، فلذلك كان تالي القرآن، يستلهم هذا الخلق من تلاوته لكتاب ربّه -سبحانه وتعالى-، حيث إنّ بلوغ مرتبة الإتقان، والتّشرّف بنيل إجازة بالسّند المتّصل، للنّبيّ الكريم- صلوات ربّي وسلامه عليه- لا يتأتّى إلا بهمّة، تدفع بصاحبها، ليكون في مصافّ المتقدّمين السّابقين، أصحاب الرّيادة والشّرف.

ويكتمل له ذلك، إذا مرَّ بالآيات الّتي تبعث في النّفس الهمّة، كقوله -تعالى-: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ففي هذه الآية استنهاضٌ للهمم، للمسارعة إلى مرضاة الله ومغفرته، والفوز بجنّاته، فهي مجموعة من

النّتائج، تستدعي هذه الهمّة للوصول إليها: مغفرة، يتبعها رضا الرّحمن، يتبعها الفوز بالجنان... قال الطبري في تفسيره: يعني تعالى ذكره بقوله: «وسارعوا»، وبادروا وسابقوا «إلى مغفرة من ربكم»، يعني: إلى ما يستر عليكم ذنوبكم من رحمته، وما يغطّيها عليكم من عفوه عن عقوبتكم عليها «وجنّة عرضها السّموات والأرض»[1]، يعني: وسارعوا أيضًا إلى جنّة عرضها السّموات والأرض».

وصاحب الهمّة هو القدوة، والنّاس تتأسّى به، فهو نموذج يُحتذى، حيث إنّه ينجز المهمّات مهما صعُبت ويحقّق النّجاح والتّميّز.

وصاحب القرآن أولى النّاس بهذه الميزة، فهو الذي بلَغ إتقان التلاوة بهمّته، وهو الّذي تأمّل آيات ربّه، وبحث في معناها، وجعل له وردا، ألزم نفسه به، وحمل على عاتقه بذل هذا العلم، ولم يتوان في تعليمه، ويظهر هذا جليًّا في سيرة من سبق منهم، ومن عايشناهم في زمننا الحاضر، فالهمّة ظاهرة في حياتهم؛ فأهل القرآن أصحاب همم، تعانق القمم.

٥ـ أثر إتقان التّلاوة وصحّة الفهم في الدقّة

إنّ قارئ القرآن يعيش مع دقّة القرآن العجيبة، فالقرآن دقيق بأدائه، والّذي يقرأ القرآن يدقّق في قراءته، فيراعي الدّقّة في تطبيق المدود

(١) تفسير الطّبريّ (٧/ ٢٠٧).

بمقاديرها وأزمانها، والدّقّة في لفظ الحركات والدّقّة في ضبط زمنها، والدّقّة بتطبيق الرّواية المختارة، والأوجه المتفرّعة عنها، والدّقّة في اختيار الوقف والابتداء، لا بدّ أن يؤثّر هذا الأداء في سلوكه.

كما أنّ القرآن دقيقٌ في ألفاظه التي تفيد دقّة التّعبير، ودقّة التّصوير، فاللّفظة في مكانها لا تعدلها لفظة، فاختيارها يوحي بأنّها غاية في الدّقّة، لأنّها من لدن الحكيم الخبير، فالمتأمّل للكلمات القرآنيّة يدرك يقينا أنّها ليست من قول البشر، لفرط دقّتها، ووضعها في موضعها المناسب لها، والأمثلة على ذلك كثيرة.

إنّ المتأمّل للآيات الّتي تشير إلى هذا السّلوك، يكتمل تأثّره به ويترسّخ في نفسه، كقوله -تعالى-: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] فنتأمّل دقّة التّعبير في الآية، عندما ذكرت العلم، بيّنت الوسائل والحواسّ الّتي يتحصّل الإنسان من خلالها على العلم، والشّيء اللافت في ذكر هذه الحواسّ، الدّقّة في ترتيبها، حيث ورد ذكر السّمع أوّلها، فهو أوّل أداة يتلقّى الإنسان من خلالها، ويدرك الأشياء بموجبها، وهي أوّلها عملا عند الولادة، كما أنّها تعمل أثناء النّوم.

وعندما يعيش قارئ القرآن هذه المعاني مع كتاب الله- تعالى-، برسمه، ولفظه، ومعانيه، وهداياته، فإنّها تؤثّر في سلوكه ومعاملاته.

حيث إنّ إنجاز المهامّ، والتّوقيت لذلك يفتقر إلى هذا السّلوك في حياة

النّاس، فسلوك الدّقّة يسهم في الإنجاز والتّطوير، واستغلال الأوقات في دفع عجلة البناء، على مستوى الأفراد والجماعات، والأمّة ككل.

المطلب الثّاني: أثر إتقان التّلاوة وحسن الفهم في تزكية وبناء المجتمع

إنّ في إتقان تلاوة القرآن العظيم، والاهتمام بحسن فهمه وتعلّمه، أكبر الأثر في بناء المجتمعات، على أساس متين من المبادئ والقيم، الّتي تسمو بصاحبها، وتجعله في أرقى مستويات التّعايش الاجتماعيّ، ممّا ينظّم حياة النّاس، ويسهم في رقيّهم وتطوّرهم.

وفي ما يلي أسلّط الضّوء على بعض هذه الفضائل والقيم الّتي تكتسب بسبب إتقان التّلاوة وحسن الفهم لكتاب الله العظيم، مع مراعاة أنّ جميع الفضائل والقيم من شأنها أن تبني مجتمعًا قويًّا سليمًا معافى، يملك كلّ أسباب النّماء والتّطوّر والازدهار، إلا أنّ ميزة المجموعة المختارة من هذه القيم الّتي أذكرها تاليا، هي في مقدور الأفراد وضمن إمكاناتهم، وفي ذلك دعوة للجميع للتّمسّك بها، والعمل على تطويرها في مجتمعاتنا المسلمة، كما أرى أنّها من الأهمّيّة بمكان، للتّركيز عليها، والاهتمام بها، نهوضا بالمجتمعات المسلمة، وعودا بها إلى سبب عزّها ومجدها.

أولا: الحبّ في الله بين أفراد المجتمع

إنّ هذه الخصيصة لأمّة الإسلام، فضلا عن كونها شعيرة قيميّة،

فإنّها متعلّقة بالوجدان والشّعور، حيث إنّها تسهم في الاستقرار النّفسيّ، والشّعور بالطّمأنينة، وتبعث على السّعادة والرّضا.

الحبّ في الله يتحقّق في مجلس التّدارس

ومتعلّم القرآن يجلس في مجلس القرآن، يتدارسه مع معلّمه، فيفيد منه، ويأخذ عنه أشرف العلوم، فيورث ذلك في نفسه حبّا لمعلّمه، الّذي يفيد منه، والّذي يكون سببا في إضافته إلى سلسلة أهل القرآن، هذه السّلسلة الشّريفة الخيِّرة، حتّى يصل بسنده إلى نبيّ الهدى وخير البشر ﷺ، وكذلك فإنّ لقاءه مع زملائه الّذين يشاركونه حلقة القرآن، ومعاشرته لهم، حيث يلتقون على الخير، على الهدى والنّور، وعشرتهم تكون مصطبغة بصبغة هذا القرآن العظيم، ومن أهمّ نتاج هذه العشرة، الحبّ في الله، الّذي يورثه هذا القرآن العظيم، فهم وطيلة مكثهم في حلقات القرآن يتمتّعون بالسّكينة، وتغشاهم الرّحمة، ومجلسهم مشهود، وذكرهم مرفوع، فتهيّأت لهم مجموعة من الفضائل، ومسبّبات الودّ والمحبّة، وجامعهم كتاب الله يتلونه ويتعرّضون لرحماته وبركاته، فيحبّون بحبّه، وبحبّ منزّله -سبحانه- .

الحبّ في الله توجيه قرآنيّ

إنّ قارئ القرآن إذا مرّ بالآيات الّتي جاءت على ذكر هذه القيمة، يعرف قدرها، والموعود الربّانيّ المترتّب على تحقّقها، فمن الآيات الّتي تدعو قارئها لتمثل هذه القيمة العظيمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ

مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ [الحشر:٩]

فقد وصف الأنصار على سبيل المدح، أنّهم يحبّون من هاجر إليهم، وحبّهم أورث في نفوسهم حبّ البذل لهم، بل وإيثارهم على أنفسهم، دون تردّد ولا يجدون في نفوسهم حسدا ولاغلا على إخوانهم، بسبب ما بذلوا لهم.

قال ابن عطيّة في تفسيره: «وأثنى الله -تعالى- في هذه الآية على الأنصار بأنّهم يُحِبُّونَ المهاجرين، وبأنّهم يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وبأنّهم قد وقوا شحّ أنفسهم لأنّ مقتضى قوله: وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ الآية. أنّ هؤلاء الممدوحين قد وقوا الشحّ، والحاجة: الحسد في هذا الموضع»[1].

يحبّونهم فيحبّون لهم الخير، وهذا من أسباب قوّة بناء المجتمع المسلم، حيث تورث المحبّة في الله، حبّ الخير للمحبوب، وعدم الحسد للمحبوب على ما آتاه الله من الخير.

إنّ هذه الشّعيرة تحقّق الصّحّة النّفسيّة، وأهل الطّبّ اليوم عملوا دراسسات على الحبّ، فوجدوا أنّ له أثرًا عجيبا في العلاج النّفسيّ والعضويّ، من أهمّ هذه الآثار أنّه يعزّز قدرة الدّماغ على إفراز مادّة (السّيروتونين) وهي إحدى النّاقلات العصبيّة ذات التّأثير المباشر في تنظيم الحالة المزاجيّة للإنسان، وتشعره بالاطمئنان والسّكينة، حتى

(١) المحرّر الوجيز (٥/ ٢٨٧).

أطلقوا على هذه المادة اسم: (هرمون السّعادة)، وقد أحدث اكتشاف هذه المادة والتّعرّف عليها؛ ثورة في علاج مرض الكآبة، حيث لوحظ أنّ معظم المصابين بمرض الكآبة، يمتلكون نسبة أقلّ من المستوى الطبيعيّ للسيروتونين في الدّماغ، ممّا أدّى بالأطبّاء إلى اختراع جيل جديد من الأدوية الّتي تقوم برفع مستوى مادّة السيروتونين في الدّماغ، ويؤكّد العلماء أنّ لهذه المادّة دورٌ لا يمكن تجاهله في الشّعور بالطّمأنينة النفسيّة[1].

قلت: إذا كان الحبّ بشكل عام يورث هذه الفوائد النفسيَّة النفِيسَة، وللعلماء دراسات أيضا تفيد أنّه نافع في علاج كثيرٍ من الأمراض العضويّة، كقولهم بمساعدة هذه المادّة في علاج الجروح، وغير ذلك[2]. فإنّ الحبّ في الله يجعل العبد يتعامل مع كلّ ما في هذا الكون على أساس الحبّ، إلا ما كان مخالفا لعقيدته، فالإيجابية منبعها الحبّ، فإذا كان الحبّ في الله مستقرٌّ في النّفس، يتمتّع صاحب هذه النّفس بالإيجابيّة، وتتكوّن لديه شخصيّة اجتماعيّة، قادرةٌ على التّفاعل مع كلّ أفراد المجتمع، والحبّ في الله من أعظم الرّوابط بين البشر، فإنّها تفوق رابطة الدّم.

---

(١) انظر موقع منظّمة الصحّة العالمية http://WHO www.who.int /ar/ ، وانظر بيكيديا الموسوعة الحرّة ar.wikepedia.org /wiki.

(٢) المصدر السّابق.

ثانيًا: التّعاون

إنّ هذه القيمة لا يستغني عنها مجتمع، لبنائه واستقرار أبنائه، والمجتمع المسلم من أولى المجتمعات بتحقيق هذه القيمة، والعمل على إظهارها في كلّ الميادين.

التّعاون يتحقّق في الحلقات القرآنيّة

ومتعلّم القرآن يستشعر قيمة هذا السّلوك، فهو يحياه مع القرآن، حيث تحقّق حلقات تعليم القرآن هذه القيمة في نفسه، فهو يتعاون مع معلّمه، ومع زملائه، فالحلقات لا تقوم إلا بالتّعاون، سواءً أكان في التّرتيب للحلقة، أو الخدمة، أو التّعاون مع زميل بإعطائه نوبته، لسببٍ ما، أو بمعاونة المعلّم في ضبط الوقت للحلقة وللمتعلّمين، أو عدد الآيات، أو بالمعاونة بتدريب وتعليم الصّغار والمستجدّين، وغير ذلك من صور التّعاون الّتي تشهدها حلقات تعليم القرآن، في المساجد ودور القرآن، والمراكز المختصّة بتعليم القرآن.

من الآيات الّتي تؤكّد على هذه القيمة

إذا مرّ متعلّم القرآن بالآيات التي تدعو لهذه الفضيلة؛ وتؤصّلها في النّفس، فتأمّلها وأحسن فهمها، تأكّدت لديه قيمة هذه الفضيلة، وبات يحرص عليها، وعلى سلوكها، حرصه على غيرها من الفضائل والقيم، من هذه الآيات:

قوله -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [المائدة:٢].

إنّ هذا التّوجيه الربّانيّ، وإن كان له مناسبة، إلا أنّه يعتبر من القواعد المعمول بها عند أهل الفقه، الّتي تلحق بها كلّ مايتعلّق باجتماعيّات النّاس ومعاملاتهم.

التّعاون بين أفراد المجتمع المسلم

إنّ المجتمعات لا تستغني عن هذه القيمة، لقيامها واستمرارها، ولذلك روعيت هذه القيمة في شريعة الإسلام، وأولاها الشّارع أهمّيّة خاصّة، وضبطها بفضيلة العمل البارّالصّالح، بعيدًا عن رذيلة العمل الآثم الباطل، قال -تعالى-: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢] فالتّعاون في هذه الآية كان له قيمة بالإيجاب: (إيجاب التّعاون على البرّ والتّقوى)، وقيمة بالسّلب: (بسلب التّعاون على الإثم والعدوان). ويكفي هذه الشّعيرة بإيجابها وسلبها فضيلةً أنّها تحقّق التّقوى، (وَاتَّقُوا اللهَ) كما يكفيها فضيلة أنّها تقي من عذاب الله -تعالى- وعقابه (إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

الوعيد على ترك شعيرة التّعاون بين أفراد المجتمع المسلم

إنّ ممّا يدلّ على أنّ التّعاون واجب بين أفراد المجتمع المسلم، أنّ الله -تبارك وتعالى- كما رتّب على التّعاون الأجور، وأمدّ المتعاونين بعونه وتوفيقه وتسديده، فإنّه-سبحانه- رتّب على من ترك هذه القيمة الإيمانيّة الوعيد الشّديد، قال -تعالى-: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧﴾ [الماعون ٤-٧].

قال الطّبريّ في تفسيره: «وقوله: (وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) يقول: ويمنعون النّاس منافع ما عندهم، وأصل الماعون من كلّ شيء منفعته»[(١)].

قال السعدي: «{وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} أي: يمنعون إعطاء الشّيء، الّذي لا يضرّ إعطاؤه على وجه العارية، أو الهبة، كالإناء، والدّلو، والفأس، ونحو ذلك، ممّا جرت العادة ببذلها والسماحة به، فهؤلاء -لشدّة حرصهم- يمنعون الماعون، فكيف بما هو أكثر منه»[(٢)].

التّعاون أساس لبناء المجتمات عند سائر المخلوقات

إنّ المجتمعات من سائر المخلوقات تدرك ضرورة التّعاون وأنّها لا

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٦٣٤).

(٢) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي النجدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، (ص: ٩٣٥).

تستغني عنه، لتحقّق أسباب وجودها، ولذلك تجد أنّ كلا منها تعيش ضمن مجتمعات من بني جنسها، حتّى الحشرات، فإنّها تعيش ضمن مجتمعات؛ قوام هذه المجتمعات تعاونها فيما بينها، كالنّحل فإنّها تعيش ضمن مجتمعات، وفي حياتها العجب، من حيث تعاونها في بناء بيوتها ومستعمراتها، وحمايتها والدّفاع عنها، والسّعي والكدّ في كلّ الأنحاء، لطلب الرّزق، وجلب الغذاء، وإنتاج العسل الّذي تتغذّى عليه في وقت الشّتاء، والله- تعالى- أراد لهذا المجتمع أن يكون مجال دراسة الباحثين، وحياته مجال تأمّل المتأمّلين، وحُقّ له ذلك، فخصّه -سبحانه- بسورة نزلت باسم هذا المجتمع.

وكذلك النّمل الّذي يعيش ضمن مجتمعات غاية في التّرتيب والدّقة، وتقسيم الأدوار والأعمال، وتتعاون على تنفيذها، بطريقة دقيقة منضبطة، يحار المرء معها، إلا حينما يستحضر أنّ الّذي خلقها هو الّذي هداها ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وقد ضرب القرآن مثلاً واقعيًّا لصورة من صور التّعاون وأثرها في بناء المجتمع، وقد جاءت هذه الصّورة في سورةٍ الكلّ مدعوّ لتأمّلها وتدبّرها، حيث يُسنّ أن تُقرأ كلّ جمعة[1]، إنّها قصّة ذي القرنين في سورة الكهف،

(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين»، أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٩) (٣٣٩٢)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٥٣) (/ ٥٩٩٦) وغيرهما، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٣/ ٩٣) (٦٢٦).

حيث طلب منه قومه الّذين عانوا من أذى يأجوج ومأجوج أن يجعل بينهم سدّا، فأجابهم بقوله ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ [الكهف: ٩٥]، فبالتّعاون حقّق لهم أكثر مما طلبوا حيث إنّهم طلبوا سدًّا، ولكنّه وجّههم للتّعاون فجعل بينهم رَدمًا.

ثالثًا: الإنفاق والبذل

إنّ لهذه الشّعيرة من الفضل في الكتاب والسّنّة، ما يجعل قيمتها في نفوس المؤمنين غاية في العظمة، فينالها من أوجه الرّعاية والعناية ما لم ينل غيرها من الشّعائر، حيث لزمها حسابات خاصّة، تلزم الواجبة منها، كما تلزم الّتي على سبيل التّنفُّل، فالواجبة احتاجت لرعاية الدّولة، ومتابعة تطبيقها بموجب السّلطة، والنّافلة منها، قامت من أجلها المؤسّسات تعالج كلّ واحدة منها جانبا من جوانب العوَز وأصحاب الحاجات، وترفِد المجتمع بأصحاب الحرف والمهن، وتدعم طلبة العلم في جميع التخصّصات، وتساعد في علاج المرضى أصحاب الحاجات...، كما قامت من أجلها مراكز للدّراسات ومكاتب استشارات، تقوم على دراسة حالة المجتمعات، للوقوف على حجم احتياجاتها، وأنواع هذه الاحتياجات، وتقدّم المشورة لأصحاب الأموال، وتبيّن لهم حاجات المجتمع الملحّة الّتي يستطيعون أن يضعوا أموالهم في علاجها ودعمها، وإنقاذ المجتمع من هذه الثّغرات، ومراعاة الأَوْلَى فالأَوْلَى، إلى غير ذلك من تخصيص الميزانيّات والموظفين لإعمار بيوت الله -تعالى-، ودور القرآن، وسائر الوقفيّات.

أثر حلقة القرآن في الإنفاق وحبّ البذل

إنّ الّذي يجلس في مجلس تدارس القرآن، يفرِّغ من وقته، ليتلقّى عن الشّيخ علم التّلاوة وأحكام التّجويد، والوقت كما هو معلوم يُستغلّ في العمل لجني المال، فيضحّي متعلّم القرآن بهذا الوقت، في سبيل تحصيل هذا العلم الشريف، وقد خبرت من طلبة هذا العلم من يملكون محالا تجاريّة، في وسط السّوق يقصده الزّبائن والعملاء في كلّ وقت، ولا معين له في محلّه، وقد يكون وقت نوبته، أو وقت مجلس القرآن في وقت الذّروة، إلا أنّه يضحّي بهذا الوقت لله -تعالى-، ورغبة في تعلّم تلاوة كتابه، فالوقت في نظر أصحاب هذه المهن هو عبارة عن مال، لكن حبّ القرآن وتلذّذهم بتحصيل هذا العلم يرغّبهم في بذل هذا الوقت، أو بذل هذا المال طيّبة به نفوسهم، وقد يعجب المرء حين يسمع من بعض هؤلاء، بأنّهم لم يجدوا فرقًا في معدّل بيعهم أثناء مداومتهم على بيعهم وعدم صرف وقت لغير ذلك، وبين تفريغهم وقتًا خاصّا بالقرآن، يتعلّمونه ويجالسون أهل الفضل والخير للأخذ عنهم والإفادة منهم، بل إنّ بعضهم يؤكّد أنّه بصرفه وبذله لهذا الوقت قد وجد بركة في بيعه وماله، وسائر شؤونه.

من الآيات التي تستدعي هذه الصفة في نفس صاحب القرآن

إذا تأمّل القارئ الآيات الّتي تحثّ على هذه الشّعيرة، وتبيّن فضلها وهي كثيرة في القرآن العظيم؛ اكتملت منظومة التّوجيه، واستقر في نفس

قارئ القرآن هذه القيمة، وحرص على العمل بموجبها، من هذه الآيات:

قوله-تعالى-:﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١].

ففي هذه الآية ورد تمثيل هذا الإنفاق، بصورة حية واقعية، تُجلّي عظمة فضيلة الإنفاق، ليتأمّل قارئ القرآن هذه الصّورة، ويتمثلها ويستحضرها، كلّ ما هم بالإنفاق، لتكون دافعًا له ومحفّزًا لبذله، ففي هذه الصّورة يدرك القيمة العظيمة لهذه الشّعيرة.

قال السّعدي في تفسيره: «{والله يضاعف} هذه المضاعفة {لمن يشاء} أي: بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها موقعها، ويحتمل أن يكون {والله يضاعف} أكثر من هذه المضاعفة {لمن يشاء} فيعطيهم أجرهم بغير حساب»[1].

ومع أنّ الرّقم يحسب ذهنيًّا، وله مقدار تقريبي في الذهن، إلا أنّ المراد من ضرب هذا

المثل، إعطاء صورة تقريبية عن حجم النّماء العجيب والقويّ والسّريع، لهذا الزّرع، فهي حركة من التّنامي والتّعاظم، واسعة النّطاق

(١) تفسير السعدي (ص:١١٣).

بحجم سعة المتفضّل الكريم، الّذي يتفضّل بالعطاء المضاعف إلى أن يصل إلى أضعاف كثيرة، وذلك لسعة عطاء المعطي الكريم، الّذي يوفّي للمعطين جزاء ما بذلوا وقدّموا ولذلك جاء تذييل الآية بقوله -سبحانه وتعالى-: (وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ).

البذل والإنفاق حسٌّ جماعيٌّ يخدم المجتمع

ولا يخفى ما في هذه الخصلة من أسباب الصحة المجتمعيّة، حيث تغني النّاس عن السّؤال، وتبعدهم عن أسباب الجريمة والرّذيلة، وترفد مؤسّسات الدّولة الّتي تعنى بهذه الشّؤون، كالشّؤون الاجتماعيّة، ومؤسّسات رعاية الأيتام، وغيرها من المؤسّسات.

والقرآن يؤصّل هذه الشّعيرة في نفوس المؤمنين، ويؤكّد على فضلها وقيمتها، كما أنّه يوجّه أتباعه إلى أنّ هذه الشّعيرة مسؤوليّة الجماعة، وكلّ فرد مدعوٌّ للمبادرة في فعلها، لقيمتها الإيمانيّة الشرعيّة، وللحسّ الجماعي، والشّعور بالمسؤوليّة تجاه المجتمع، الّذي هو بيت الجميع، ومسؤوليّة الجميع.

ولا يتقدّم على أهل القرآن في هذا الميدان أحد، فهم يحملون راية تعليمه والدّعوة إليه، وحثّ الناس على التخلّق بأخلاقه، وهم يبذلون الأوقات، ويُسَخِّرون طاقاتهم خدمة لهذا الكتاب، ولا يفتُرون عن بثّ علومه، ولذلك تجدهم من أسرع النّاس في الإنفاق، وفي مقدّمة النّاس في البذل، فمن يبذل الغالي، هان عليه بذل الرخيص.

رابعًا: الولاء والبراء

إنّ هذه القيمة العقديّة العظيمة أساسٌ في بناء المجتمع الإسلاميّ، وتعمل على ربط أفراده رباطًا قويًّا متينًا، والمجتمع حتّى تتحقّق فيه معاني الرقيّ والحضارة لا بدّ له أن يستند في تواصله وترابطه إلى قاعدة صلبة راسخة، وقاعدة المجتمع المسلم في سائر قيمه العقديّة والعلميّة والمجتمعيّة، وغيرها من القيم، إنّما أساسها الوحي، ممّا يجعل الإنسان مُعظِّما لهذه القيم جميعًا، وتعظيمه لها إنّما هو نابعٌ من تعظيم مصدرها، فيرتقي إحساس الإنسان بالمسؤوليّة عن سائر تصرفاته، كما أنّ ميزتها الروحيّة دافع قويّ للمبادرة بتطبيقها.

فالولاء والبراء يعتبر لازمٌ من لوازم التّوحيد.

اجتماع المتعلّمين على كتاب الله -تعالى- يؤصّل الموالاة بينهم.

إنّ قارئ القرآن يتربّى على هذه القيمة العقديّة منذ جلوسه في حلقة القرآن، مع شيخه وبين زملائه، يجتمعون على هذا الكتاب العظيم، وعلى عقيدة التّوحيد، متحابّين متناصرين، متناصحين، متباذلين، وقد عُهِد عن هذه الحلقات أنّ المنتمين إليها، تمتاز علاقتهم بالحبّ الصّادق والوفاء، ودوام التّواصل والودّ.

حيث تتأصّل هذه الشّعيرة في نفوسهم، وتترقّى معهم هذه الخصلة، ويزيد تمكّنها في نفوسهم، كلّما طال مكثهم في الحلقات القرآنيّة، فتتوطّد

هذه العلاقة، ويزداد ترابطهم وتزداد محبّتهم.

ثمّ إذا تأمّل المتلقين الآيات الّتي تشير إلى هذه القيمة، أخذت في نفوسهم مأخذها، فيعظّمون شأنها ويحرصون عليها، ففي ولاية المؤمنين قوّة ومنعة، وفي البراء من الكافرين وأعداء الملّة والدّين إضعاف لهم وكسر لشوكتهم، من هذه الآيات: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

في هذه الآية حصرت الولاية لله، وجاء الولي بالإفراد للتنبيه على أنّ الولاية بالأصل لله -تعالى-، وعطف الرّسول على لفظ الجلالة تكريمًا، وولايته وولاية المؤمنين جاءت تبعا لولايته- سبحانه-.

وإنّما جاء بيان الولاية وحصرها فيم تكون؛ بعد النّهي عن تولّي الكفرة، قال- تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢] .

شرف الموالاة وأثرها على المجتمع المسلم

ولا يخفى على صاحب حِجى ما للموالاة بين أفراد المجتمع من قوّة ومنعةٍ، فكيف إذا كان الولاء لمن بيده مقاليد كلّ شيء -سبحانه-، فهو

القويّ العزيز، من انتسب إليه لايذلّ ولا يضعف، والعاقل من جعل ولايته للأقوى.

وفي نسبة الولاية لله- تعالى -خاصّة، تعظيمٌ لشأن هذه الولاية، قال أبو السّعود في تفسيره لهذه الآية: «جُعِلوا حزبَ الله -تعالى- تعظيمًا لهم وإثباتًا لغَلَبتهم بالطّريقِ البرهانيِّ كأنّه قيلَ ومن يتولى هؤلاء فإنّهم حزبُ الله وحزبُ الله هم الغالبون»[1].

ويكفي من انتسب إلى هذا الحزب شرفًا، هذه التسمية ولا يخفى ما في هذه الآية من البشارة، حيث إنّ الغلبة نتيجة لهذه الطّاعة، وتولّي حزب الله.

إنّ شعيرة الولاء تحقّق الاجتماع ووحدة الصّف في أمّة الإسلام، فهي في الله ومن أجل الله الواحد الأحد -سبحانه-، فهي اجتماع لكلمة الجماعة، فيتكاتفون ويتعاضدون، فيقوى بأسهم ويُمكَّن لهم، فالاجتماع سببٌ للقوّة والتمكين.

وهو اجتماع يمتاز بأنّه الأفضل والأرقى، لاقترانه بالحبّ والتأييد والنّصرة، فيسهم باجتماع الأمّة، ونبذ الفرقة، والّذي يصبّ في مصلحة نهضتها ورقيّها، والتّمكين لها.

---

(١) أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي التركي، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي بيروت، (٣/ ٥٣).

البراء: إنّ البراء يختصّ بأعداء الله ورسوله والمؤمنين، وإمام هؤلاء الأعداء جميعًا هو الشّيطان، قال -تعالى-: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠] تقرّر هذه الآية حقيقة العلاقة بين المؤمنين، وبين الشّيطان، كما تبيّن عداوته الّتي يجب أن يوصف بها، ليُحذر منه ومن كيده.

تحقيق متعلّم القرآن البراء تطبيقا عمليًّا بفضل تلاوته

إنّ متعلّم القرآن يحيا هذا البراء تطبيقا، فهو يفتتح تلاوته بالاستعاذة، حيث يبدأ أوّل ما يبدأ في تلاوته بالتعوّذ من هذا العدوّ الماكر، فيلوذ بالله، ويلتجئ إليه من شرّه وكيده ومكره، كما أنّ قراءة القرآن حصنٌ من هذا العدوّ، ونجاةٌ منه، فقراءة القرآن فيها من التجليّات والبركات، وتحضرها الملائكة للاستماع وصالحوا الجنّ، فإنّ الشّيطان يخسأ مع هذا كلّه، ويضيق المكان عليه، ولا يستطيع مزاحمة جموع الخير، ودلّ على هذا وعلى صفته في حال الذّكر، قوله -تعالى-: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس:١ -٦] فهو الذي يوسوس حال الغفلة، وإذا جاء الذّكر خنس، ولا يخفى ما للقرآن من فضل على سائر الذّكر، ولذلك رتّب الشّارع الحكيم عليه وعلى مجرّد تلاوته الأجور العظيمة.

إنّ قيمة الولاء والبراء أصلٌ في تماسك المجتمع، وترابط أبنائه، وتوحيد صفهم، ممّا يجعله مجتمعًا قويًّا متماسكًا، يتعاضد أبناؤه، يتعاونون، يسهمون في بناء ورقيّ مجتمعهم.

والّذين يستقون هذه القيم بتأثّرهم بالقرآن وبما يوجّههم إليه، يؤصّلها في نفوسهم، بحيث يجعلهم القدوة في هذه الشّعيرة، والأكثر عملا بهذه القيمة.

خامسا: الحياء

إنّ هذه القيمة فيها من أسباب حفظ المجتمع، ما لا يعلم حجم هذا الحفظ إلا الله.

ـ الحياء يورث رقّة في الطّبع

إنّ من تحلّى بالحياء يكتسب رقّة في طبعه ويلين بجانبه للآخرين، ويمتاز بالتّغافل، فيغضّ الطّرف عن الكثير من الإساءة والأخطاء الّتي يُحْدِثُها من يعاشرهم في حقّه.

وبالمقابل فإنّه يتجنّب الغلظة والجفاء، ولا يخفى ما لهذا الخلق السيّئ من أثرٍ على تقطيع الأواصر، وانتشار البغضاء والأحقاد بين أفراد المجتمع.

ـ الحياء يضفي زينةً وجمالا على صاحبه

إنّ الحياء صفة جماليّة للإنسان، يضفيها على صورته الظّاهرة فضلا

عن صورته الباطنة، والحييّ شخص يؤنس به، لجمال خاصّ وزينة مميّزة يمتاز بها عن غيره من النّاس.

فهو وإن كان جمال في ذاته، وزينة بنفسه، فإنّه يبعث على فعل الجميل، والتزيّن بالصّفات الحميدة.

ـ الحياء سببٌ لفعل الصّالحات وترك المنكرات

في هذه الفضيلة حثٌّ على الطّاعة وأعمال البرّ، كما أنّه يبعث على ترك المعاصي وأعمال الشرّ، فهو قرين الإيمان، والإيمان مجمع كلّ الفضائل، ومنفّر من كلّ الرّذائل.

قال ابن القيم: «ولولا هذا الخلق، لم يُقرَ الضّيف ولم يُوفَ بالوعد، ولم يُؤدَّ أمانة، ولم يُقضَ لأحد حاجة، ولا تحرّى الرجل الجميل فآثره والقبيح فتجنّبه، ولا ستر له عورة، ولا امتنع من فاحشة، وكثير من الناس لولا الحياء الّذي فيه لم يؤدّ شيئا من الأمور، المفترضة عليه ولم يرْعَ لمخلوق حقًّا ولم يصل له رحمًا ولا برّ له والدًا»[1].

ـ الحياء خلق مكتسب لصاحب القرآن

والحياء خلق مكتسب لمتعلّم القرآن الّذي يجلس بين يدي الشيخ، فإنّ هذه الخصلة تضاف إلى منظومة الأخلاق الّتي يكتسبها متعلّم القرآن من

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٧٨).

خلال هذه المجالس، فإنّ حامل القرآن تأسره هذه القيمة، فتحجزه عن كلّ ما يشين وما لا يليق بمن يتشرّف بالانتساب إلى كتاب الله- تعالى-، حيث يتمثّل هذه القيمة عند كلّ حسنة فيبادر في فعلها، وعند كل سيّئة فيحجم وينفر منها، فلا يليق بمن أكرمه الله -تعالى- بهذا الشّرف أن يكون متواجدا إلا في مواطن البرّ، ومواقف المروءة، ويمنعه الحياء من الله- تعالى-، ومن كلامه المبارك الذي يتغنّى به ويحياه ويأنس به ويتبارك به، ومن عباده الّذين عرفوه أهلا للقرآن، أن يتواجد في مواطن المعصية والرّيبة، ومواقف الخزي والخسّة والخيبة.

فإذا مرّ قارئ القرآن متأمّلا بالآيات الّتي تحضّ على هذه الفضيلة، كانت مدعاة له لأن يتخلّق بهذا الخلق، استجابة لتوجيهات هذا القرآن العظيم، من هذه الآيات:

قوله -تعالى-: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء:١٠٨].

في هذه الآية ذمّ لمن جعل الله- تعالى-، أقلّ النّاظرين إليه، ذلك أنّه قدّم الحياء والخوف من مذمّة النّاس أو أذاهم، على الحياء والخشية من الله -تعالى-، ومن غضبه وعقابه- سبحانه- .

قال النّسفي في تفسيره لهذه الآية: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾.

{يَسْتَخْفُونَ} يسترون {مِنَ الناس} حياءً منهم وخوفاً من ضررهم {وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ الله} ولا يستحيون منه {وَهُوَ مَعَهُمْ} وهو عالم بهم مطّلع عليهم لا يخفى عليه خافٍ من سرّهم وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلّة الحياء والخشية من ربهم مع علمهم أنّهم في حضرته لا سترة ولا غيبة»[1].

مثالٌ على الحياء ارتبط بإتقان التّلاوة وحسن الفهم

إنّ إتقان التّلاوة، وتذوّق المعنى والفهم الصحيح، يوجّه متعلّم القرآن إلى هذه الخصلة، وقد جاء المثال في آية، ويظهر المثال جليًّا بإتقان تلاوتها و تدبّرها وحسن فهمها.

فتالي القرآن المتقن، الّذي يتقن الوقف والابتداء في تلاوته، ويتذوّق معاني القرآن العظيم من خلال إتقانه لهذا المبحث، يجد في الآية التّالية وصفًا دقيقًا وجميلا لهذا الخلق وهذه القيمة المباركة، التي أرادها الله -سبحانه- زينة يتزيّن بها أهل الإيمان من الرّجال والنّساء، قال -تعالى-: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٢٥].

ففي هذه الآية المباركة، تكريمٌ لخلق الحياء، ورفعة لشأنه، وقد صوّرته

(١) النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي أبو البركات الأصبهاني، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار الكلم الطيب بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، تحقيق: يوسف علي بديوي، (١/ ٣٩٤).

تصويرًا عجيبًا وجعلته صورة جمالية، كما جعلته في المرأة أخصّ، والقارئ المتقن، الّذي تمكّن من مبحث الوقف والابتداء، متأمّلا للمعنى الصّحيح المترتّب عليهما أثناء أدائه للتّلاوة، وفي تلاوته لهذه الآية على وجه الخصوص، يوضّح أنّ صفة الحياء قد شملت هذه المرأة بالكليّة، وتجلّى ذلك بما يَظهَر من هذا الخلق، وذلك من خلال الكلام والمشي، اللذان يُظهران طبيعة المرأة، ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب: ٣٣] ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: ٣١].

فإذا وقف القارئ على قوله- تعالى-: ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ أفادت:أنّ مشيها كان كلّه حياء، ومن روعة التّصوير في هذه الجملة القرآنيّة، أنّها صوّرت الحياء وكأنّه مركب يحملها، فاستوعب الحياء شخصها كاملا، كما استوعبت هي الحياء كاملا.

فإذا بدأ القارئ بقراءته، استأنف القراءة من قوله- تعالى-: ﴿ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ ليفيد أنّ قولها كان كلّه حياء، وكأنّه اعتمد على الحياء، الذي استوعبته، فركبت الحياء منذ مجيئها، وأثناء مشيها، وحال قولها، وكأنّ الحياء مطيتها، وجلبابها، تتحلّى به، تتعفّف به، تتزيّا به.

فالحياء حلّة جمال يُجمّل صاحبه في عيون الخلق، ويُطَيّب ذكره بين النّاس، ويكون مدعاة لمحبتهم وتقديرهم، والحييّ يسهم في نشر الفضائل،

وسدّ الطّريق على الرّذائل، فإذا رأى ما يشين غضّ بصره عنه، وإذا رأى ما يسرّ ممّا يُعدّ من الفضائل، تهلّل وأقبل عليه ونشره، وبشّر به.

والمجتمع الّذي تعظم في نفوس أفراده هذه القيمة، تنتشر فيه أسباب العفّة والطّهر، فهو يقي المجتمع من الأمراض الّتي تفتك به، وتدمّر أركانه، فيكون مجتمعا سليما من أسباب الخنا والفجور، الّتي هي من أخطر الأمراض الّتي تدمّر المجتمعات.

سادسا: الصّبر

إنّ فضيلة الصّبر، من الفضائل المميّزة في شريعتنا الغرّاء، وقد عظّم قيمته الشّارع الحكيم، في الكتاب والسنّة، لما رتّب عليه من الأجور العظيمة.

ولا يخفى مدى حاجة المجتمع لهذه القيمة، لسلامته وعافيته، وتطوّره وتقدّمه، حيث إنّ هذه القيمة لازمة لكلّ تجمع، فطباع البشر تختلف من شخصٍ لآخر، وإمكاناتهم تتفاوت، وأفهامهم تتباين، فلا بدّ لكلّ أحد يحتكّ بغيره من النّاس أن يتحلّى بهذا الخلق، حتّى يستطيع التّعايش معهم.

أثر تعلم القرآن في حصول خلق الصّبر

والصّبر من أهمّ الآداب الّتي يجب أن يتحلّى بها طالب هذا العلم، حتّى يتمكّن من تحصيله والتمكّن منه.

صبْرٌ على جلوسه في حِلق القرآن، وصَبْرٌ على شيخه وطباعه، وصبْرٌ على زملائه.

بتأمّل الآيات وحسن فهمها تكتمل صورة التّوجيه القرآنيّ لهذا الخلق

فإذا تأمّل متعلّم القرآن الآيات الواردة في فضل هذه الخصلة تعظم قيمتها لديه قال -تعالى-: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣] .

إنّ هذه الآية الكريمة تحمل في طيّاتها منهجا تربويّا عظيما، يحفظ المجتمع من كلّ أشكال الاحتقان الّتي تورث المشاحنات والأحقاد، وذلك بتعظيم قيمة الصّبر على أشكال الأذى الّتي يتعرّض لها الإنسان، والجميل في هذه القيمة ومثيلاتها من القيم الإيجابيّة، الّتي ورد التّرغيب بها والعمل بمقتضاها بالكتاب والسنّة، أنّها دعوة عامّة لكلّ أفراد المجتمع المسلم، لا تخصّ فردًا دون فرد، لكن الخصوصيّة والتّمايز يحصلان لمن يبادر للعمل بموجبها، ويتمثّلها في مواطن الحاجة إليها، والّتي نبّه عليها وأرشد إليها الشارع الحكيم.

قال الطبريّ في تفسيره: يقول تعالى ذكره: ولمن صبر على إساءة إليه، وغفر للمسيء إليه جرمه إليه، فلم ينتصر منه، وهو على الانتصار منه قادر ابتغاء وجه الله وجزيل ثوابه. ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ يقول: إن صبره ذلك وغفرانه ذنب المسيء إليه، لمن عزم الأمور الّتي ندب إليها عباده،

وعزم عليهم العمل به»[1].

ولا يخفى ما لهذه الخصلة من أثر في المجتمع، وأمنه وأمانه، ورقيه واستقراره، حين تنتشر ثقافة الصّبر على الأذى بين أبنائه، وتنحسر ثقافة الانتقام، والانتصار للذّات.

وقد يعطى الصّابر أجر صبره في الدّنيا قبل الآخرة، لكن الأجر العظيم، الذي لا يهتدي إليه الحساب، إنّما يكون في الآخرة، في جنّة عرضها السّماوات والأرض، فالصّبر عاقبته أحلى من العسل.

وكلّ مجتمع لكي يقوم، ويستمرّ قويًّا معافى، لا بدّ له من قِيَم وفضائل، يدرك أهمّيتها أفراده، ويتعاملون ويتعايشون بموجبها، فتنتظم حياتهم بموجبها، وكلّما كانت هذه الفضائل والقيم، تصبّ في مصلحة الجماعة، وتخدم برامجهم التربويّة والتنمويّة والاقتصاديّة، واقعيّة بعيدة عن الخيال والمبالغة، كلّما تمسّك بها أفراد المجتمع، وحرصوا على العمل بمقتضاها، واعتبروا المحافظة عليها والدّفاع عنها مسؤوليّة الجميع.

خلاصة

إنّ تعلّم القرآن يؤصّل هذه القيم وينشر هذه الفضائل، فإذا انتشرت بين أفراد المجتمع انتظمت حياتهم وتوحّدت وجهات النّظر، وتوحّدت

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٥٥١).

اهتمامات الأفراد، وتوحّدت تطلّعاتهم وطموحاتهم، فتعمّ الألفة والمحبّة.

وأرى أنّ تخصيص الحديث عن الفضائل والقيم الإسلاميّة، دون غيرها، الّتي يؤصّل لها الوحي، ويعظّم شأنها، ينشر ظاهرة الالتزام والتّطبيق؛ لأنّ تعظيمها والاهتمام بتطبيقها يرتبط بتعظيم مصدرها.

المطلب الثّالث: أثر إتقان التّلاوة وصحّة الفهم في بناء مؤسّسات المجتمع

إنّ إعداد الأفراد في أيّ مجتمع تعتبر مسؤوليّة عظمى، فهم الّذين يرفدون مؤسّساته ويعملون على تطويرها، وتحسين الأداء فيها، ولذلك اهتمّت الدّول بهذا الشّأن، فعملت على إنشاء دُور التّعليم بجميع مراحله، وأقامت مراكز التّأهيل والتدريب، وكلّ ما يحتاجه الفرد من بناء وإعداد ورعاية، بحيث تتشكّل لديه مجموعة من المبادئ والقِيم، تحثّه على العمل والإنتاج والتطوير، وتؤصّل في نفسه قيمة المشاركة والتعاون، والمحافظة على المجتمع ومؤسّساته، وتحفّ كلّ ذلك بسياج من الحوافز والعقوبات، لتضمن صلاحيّة هذا الفرد وبناء شخصيّته بناءً سليمًا متينًا، لأنّه العنصر الأساس في بناء المؤسّسات، وكلّما كان الإعداد والبناء للأفراد قويًّا ومتينًا، كانت المؤسّسات كذلك.

والمجتمع المسلم يُعدّ أفراده على أساس المبادئ والقيم الواردة في كتاب الله -تعالى-، والتي صحّت عن رسوله الكريم، وميزة هذا الإعداد، أنه

لا يقتصر على البناء الخارجي، وربط الفرد بالعالم الخارجيّ، فينضبط وفق النّظام الخارجيّ الخاضع للقانون والأوامر والّتعليمات، إنّما يصل إلى البناء الداخليّ للإنسان، فيعمل على تكوينه النفسيّ، بحيث يكون الدافع والمحفّز للفعل أو الترك من داخل الإنسان، الذي يتحلّى بحسّ المراقبة الدّاخليّة، والشّعور بالمسؤوليّة الذاتيّة، والقيم التي يتربّى عليها، قيم تبثّ الهمة وتبعث على التّنافس في التّطوير والإتقان، فحركته في الحياة لا ترتبط بالمادّة فقط، حيث إنّ المسلم يعمل ويعتاش من عمله، مع احتساب الأجر من الله- تعالى- في تأدية الأمانة، والوفاء بالعهد، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، والإحسان والإتقان، فالقيم للأعمال قيم روحيّة قبل أن تكون قيمًا ماديّة.

ولا يزال القرآن يؤصّل هذه القيم في نفوس المؤمنين، ويدعوهم إلى كلّ خير وفضيلة، ويزجرهم عن كلّ شرّ ورذيلة، كما يؤصّل في نفوسهم الحسّ الجماعيّ، وتقديم مصلحة الجماعة على المصالح الفرديّة.

ويحثّهم على العمل، ويوجّههم للإتقان والتّطوير والإبداع، كما ينبّههم إلى أنّ هذا يتيسّر بنَفَس الجماعة، وبتظافر الجهود، واستغلال الطّاقات، وحسن توزيع الأدوار.

وعندما نتأمّل أثر إتقان التّلاوة وحسن الفهم في بناء مؤسّسات المجتمع، فإنّنا ندرك حجم العناية، ودقّة التّوجيه، ويظهر ذلك جليًّا من خلال التّنبيه على التّفاعل والمشاركة والخطاب الموجّه للجماعة.

وأبيّن تاليا ما توصّلت إليه تحت هذا الباب بعد البحث والتأمّل:

إنّ الحرف باستقلاله يشكّل وحدة لها شأنها المميز، من حيث المخرج والصّفات، فكلّ حرف مستقلّ بصفات تخصّه، تميّزه عن غيره من الحروف وإن اتّحدت معه في نفس المخرج، فقد يتّحد الحرف مع غيره من الحروف في المخرج الواحد، لكنّه يجانبها في صفات خاصّة به تميّزه عنها، وقد تكون هذه الصّفات صفات قوّة، وقد تكون صفات ضعف، وقد تكون متوسّطة بين القوّة والضّعف، لكنّها تمتزج في اللفظة القرآنيّة، فتشكّل وحدة متماسكة.

وهذه الوحدة قد تجمع حروفا متباعدة في المخارج، أو متقاربة في المخارج، أو مجانسة لها في المخرج، وقد تجمع حروفا قويّة، وحروفا ضعيفة، وحروفا متوسّطة القوة، لكنّها وضعت في موضعها المناسب لها في الآية، هذه الآية التي تشكّل وحدة متماسكة مترابطة متناسبة، ولو نزعت هذه اللفظة من مكانها في الآية ثم راح الخلق يبحثون عن لفظة تصلح أن تكون مكانها، وتؤدّي مؤدّاها لأعجزهم ذلك، لأنّ أيّ لفظة غيرها لن تحمل القوّة المؤثّرة العجيبة الّتي تحمّلها هذه اللفظة التي أودعت مكانها بحكمة بالغة.

ثمّ تجتمع هذه الآيات ضمن السّورة، هذه السّورة التي تمثّل وحدة متكاملة متعاضدة متناغمة، غاية في القوّة والتماسك والرّوعة، والتي تجتمع مع أخواتها لتشكّل هذا البناء المتين،

وهذا العقد النّضيد، لتشكّل بمجموعها الموصوف بالحياة، لتشكّل بمجموعها الموصوف بالنّور، لتشكّل بجموعها هذا القرآن الّذي جاء لينظّم حياة النّاس وفق منهاجه العظيم الحكيم.

وانطلاقا من هذه الصّورة الجماليّة لحقيقة هذه الحروف، التي هي أساس بناء النّظم القرآنيّ، وقد جاءت منفردة مفتتحة بها بعض السّور، كإشارة إلى أنّ أساس هذا القرآن هذه الحروف بتنوّع مخارجها وتعدّد واختلاف صفاتها، ونبّه إلى ذلك نبيّ الهدى ﷺ، حيث قال:» من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»[1].

فإنّ البشر حالهم كحال هذه الحروف، فهم ينحدرون من منابت شتّى، ولهم أصول متنوّعة، وهم كذلك متفاوتون متباينون بالصّفات، حتّى الّذين ينحدرون من أصل واحد، ففيهم القويّ وفيهم الضّعيف، وفيهم الرّفيع وفيهم الوضيع، وفيهم المفخّم وفيهم المرقّق...، وكلّ واحد منهم إذا أُحسن اختيار مكانه المناسب له ولقدراته، وأدّى دوره المناسب، حينها يسهم كلّ فرد منهم في التّعمير، ويؤدّي دورا عظيما في البناء كل حسب موقعه، ابتداء من الأسرة، ثمّ الحيّ، ثم البلدة، ثمّ بتظافر الجهود مع المناطق الأخرى في المجتمع الواحد تُبنى مؤسّسات هذا المجتمع، فتقوى

(١) سنن الترمذي (٥/ ١٧٥) حديث رقم: (٢٩١٠)، قال عنه أحمد شاكر في تحقيقه: حديث صحيح.

دعائمه، وتستقرّ أحواله، وحين تلتقي هذه المجتمعات ضمن منظومة عظيمة، معتمدها القيم والمبادئ، فإنها تشكّل الأمّة صاحبة الشّأن، أمّة الوراثة، أمّة التّمكين، أمّة الخيريّة، أمّة الإسلام.

وكما أنّ الحرف القويّ يفيض من قوّته ويؤثّر بصفاته على الحرف الضّعيف، ويتراصّ معه في لفظة واحدة، والحرف الضّعيف يسنده ويتمّم معه نظم الكلمة، فإنّ الإنسان القويّ يوظّف قوّته لخدمة مجتمعه بجانب أخيه الضّعيف، والضّعيف يقوم بدوره حسب طاقته وقدرته وحجم تأثيره، خلال منظومته مع أخيه القويّ، ليصل الجميع بمجتمعاتهم إلى أفضل درجات الرقيّ، وتسود مجتمعاتهم الإيجابيّة، فالكلّ له دور، ولا سلبيّة مع هذا المنهاج العظيم، فكلّ إنسان مهما قلّ حجمه وضعُفت بنيته، أو تواضعت قدراته العقليّة وإمكاناته الماديّة، فإنّه يستطيع أن يقدّم شيئا، مهما قلّ شأن هذا الشّيء إلا أنّه يحتاج إلى وقت وجهد لأدائه وإنجازه، فكلّ من حمل عبء عمل فأدّاه، كان قد أسهم في هذا البناء.

الاجتماع في الإسلام وفضل الجماعة

إنّ فكرة الاجتماع في المجتمع المسلم، تبنى على مبدأ الإيجابيّة، والمبادرة بخدمة المجتمع من قبل جميع أفراده الذين ينتمون إليه، وذلك بتسخير كل الإمكانات، واستغلال كل الطّاقات للبناء والتّطوير، مع استحضار القيمة الروحيّة لأيّ عمل، بحيث ترتفع قيمة العمل في نفس الفرد المسلم، ممّا

يحفّزه للعمل وخدمة مجتمعه، كما أنّ مراعاة الاستجابة للتّوجيه الرّبانيّ بالعمل ضمن الجماعة، تزيد في ضمان التّوفيق والمعيّة والإعانة التي وعد الله بها لمن عمل ضمن الجماعة، روى التّرمذيّ في سننه، عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله : «يد الله مع الجماعة»[1] .

إنّ من أخطر ما تعانيه الأمّة الإسلاميّة اليوم، غياب الروح الجماعيّة، حتى أثّر هذا الواقع على الفكر، فأصبحت من الإشكالات الفكرية، حتّى سادت آفة الفرديّة وحبّ الذات، إلى أن أصبحت مصلحة الفرد مقدّمة على المصلحة العامّة للمجتمع.

ولذلك احتاج المجتمع المسلم، وعلى مرّ الدّهور إلى المؤسّسات المختلفة التي تُعنى بتنمية الفكر الجماعيّ، واعتماد العمل المؤسّسيّ، الّذي يقوم على أساس توزيع الأدوار، ومراعاة الكفاءات، تحتكم في عملها إلى شرع الله- تعالى-، وتعتمد القيم الشرعيّة في عملها، بحيث لا تتأثّر بمن تسلّم زمام الأمور فيها، فهو يقوم بتطبيق نظام منضبط بالضّوابط الشرعيّة.

فها هي دولة الحضارة، رائدة التّقدم في هذا الزمان (الولايات المتحدة الأمريكية)، هي دولة مؤسّسات تعمل وفق استراتيجيّات محدّدة، من صنع الجماعة، فلا يؤبه لمن يرأسها، حيث يقوم بتطبيق هذه الاستراتيجيّات،

(١) سنن الترمذي (٤/ ٤٦٦) حديث رقم: (٢١٦٦)، وصححه الألباني في الصحيح الجامع (١/ ٦٧٧) (٣٦١٨).

وهو خاضع لمراقبة الجماعة.

لكن ما يميّز المجتمع المسلم، أنّه يُبنى وفق منهج ربّانيّ بالغ الحكمة، فيه من الثّوابت الّتي تجعله مجتمعا قويّا سليمًا مترابطًا متراحمًا يراعي كلّ أفراده ويرعى مصالحهم، وأفراده يبذلون كلّ ما يملكون للحفاظ عليه وعلى مقدّراته.

وبناء القرآن لفكرة الجماعة، وتثبيت صورتها في نفس المؤمن، يتحقّق من خلال تلاوته وتعلّمه وتدبّره لهذا الكتاب العظيم، الّذي ارتضاه خالق الكون هاديًا حقيقيًّا للبشريّة جمعاء، يرجعون إليه في سائر شؤون حياتهم، فها هو في بنائه المتمثل بحروف هذه اللغة العظيمة المختارة المصطفاة، تمتزج هذه الحروف الضّعيف مع القويّ، يشكّلان نسيجًا رائقًا قويًّا، متناغمًا، كل حرف في مكانه يؤدّي دوره بإبداع وإقناع وإمتاع، وكلاهما يوصل رسالة: الضّعيف شأنه شأن القويّ، كما هو الحال مع الإنسان إذا أدّى دوره المناسب، وبحسب طاقته وإمكاناته وما يحمل من صفات أسهم بالبناء، وامتاز البناء بالقوّة والتّماسك والجمال والرّوعة والإبداع، فالضّعيف له مكانه المناسب كما هو الحال مع القويّ.

إنّ القرآن في اللغة: مصدر قرأ، وقرأ تأتي بمعنى الجمع والضّم، والقرآن سمّي بهذا الاسم؛ لأنّه يجمع السور والآيات والألفاظ والحروف، والقصص والأحكام والأوامر والنّواهي، وبالإضافة إلى ذلك كلّه، فإنّه

يجمع القلوب ويؤلّف بينها، جاء عن نبيّنا ﷺ أنه قال: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه» [1] ففي هذا الحديث إشارة صريحة إلى أنّ القرآن سبب في الاجتماع وتأليف القلوب، فإذا لم تتحقّق هذه النّتيجة للقرآن الكريم، ودبّ الخلاف وتنافرت القلوب فقوموا واتركوا المجلس، لأنّ القرآن لم ينزل لهذا، إنّما نزل ليحقّق الاجتماع ويؤلّف القلوب، ويجمع الكلمة ويوحّد الصّف، وتعلّم القرآن وتلقّيه لا يكون إلا بالاجتماع، وقد جاءت النّصوص تشير إلى ذلك[2].

أهمّ مقوّمات بناء ونجاح مؤسّسات المجتمع

من أهمّ مقوّمات بناء المجتمع الّتي يؤصّلها القرآن في النّفوس، ويبثّها ثقافة ثابتة وعقيدة راسخة في قلوب المؤمنين، ليحملوا لواء البناء والتّطوير والإبداع، ويستفاد ذلك من تلاوته وحسن فهمه:

أوّلا: العدل

إنّ الأصل في العلاقات بين البشر أن تعود على أبناء المجتمع الواحد بالطّمأنينة والسّعادة، وحتّى يتحقّق لهم ذلك، لابدّ لها من ضابط يضبطها، ولا تترك لأهوائهم ورغباتهم وذوقيّاتهم، فإنّ النّفس البشريّة مجبولة على

(١) صحيح البخاري (٩/ ١٢٤) حديث رقم: (٥٠٦٠).

(٢) انظر صحيح مسلم: (٦/ ١٨٨) الحديث رقم: (٢٦٩٩).

حبّ ذاتها وشهواتها، ولذلك جاء التّشريع ليحكم تصرّفات النّاس بالعدل، فيعطي كلّ ذي حقّ حقّه، ويحاسب النّاس على ما ملكوا حقّ التّصرف فيه، وتمكّنوا منه، وأوكل إليهم، ويجازيهم بحسب ما عملوا، فقد ساوى ربّنا- سبحانه وتعالى- بين عباده بالتّكاليف، والأحكام والتّشريعات، لكنّه عدل في حكمه فيهم بأن كلّف كلّ نفس ما آتاها، وكلّف كلّ نفس وسعها، فيكون حسابه لكلّ إنسان بحسب طاقته وإمكاناته، وهذا لكمال عدله- سبحانه-، كما أنّه أعدّ الثّواب والعقاب لعباده بحسب أعمالهم، وبحسب إحسانهم وإساءتهم، ولكمال عدله -سبحانه- فقد مّيز بعضهم عن بعض في الدّرجات والدّركات كلّ بحسب عمله.

تأصيل العدل في نفوس المؤمنين

إنّ المتأمّل بتلاوة القرآن يجد أنها تؤصّل للعدل في نفوس المؤمنين، فقارئ القرآن يعطي كلّ حرف حقّه ومستحقّه من الصّفات اللازمة والصّفات العارضة، فيتقرّر خلق العدل مع كلّ حرف من حروف هذا الكتاب العظيم.

وكذلك فإنّ الخطاب القرآنيّ اهتم اهتمامًا عظيمًا بهذا المبدأ الذي به قوام المجتمع، فجاءت النصوص تأمر بهذا السّلوك وتحثّ على الالتزام به من قبل جميع المخاطبين، فالله -تبارك وتعالى- قد وضع العدل وأثبت موازين الأشياء، لتوزن جميع الأشياء بالحقّ والعدل.

قال -تعالى-: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

وقد ذكر الميزان لزيادة العناية، والتّوكيد على تطبيق العدل، وذلك بذكره وهو آلة محسوسة به تقدّر الأشياء، فجعله حكمًا على الأمور الباطنة؛ كما هو أصل في الحكم على الأمور الظّاهرة المحسوسة، وتكرار ذكر الميزان توكيد على فعل هذه الآلة من إقامة العدل بالوزن، والله- سبحانه وتعالى -قد جعل العدل في السّماء فانتظمت الحركة فيها، وكذلك فقد جعل الله العدل في الأرض بشرعه- سبحانه-، لتنتظم حياة الخلق وفق هذا الشرع المحكم، فلا يصحّ بالحكم غير هذا الشّرع المُحْكَم، ولا يُحاد عنه بحال، فالذي أحكم السماء وضبط حركتها وأقام فيها العدل؛ هو الذي شرع لعباده في الأرض ما يحكم حياتهم ويقيم العدل بينهم ويضبط حركتهم بدقّة وإحكام، والقرآن العظيم في هذه الدّنيا هو الحكم، وهو الميزان الذي توزن به جميع الأمور الظاهرة والباطنة.

فالعدل قوام المجتمعات، به تقوم، وبه تقوى وتدوم، فيه إنصاف لكلّ الأفراد، بأن يأخذوا ما لهم ويؤدّوا ما عليهم، فيشعر كلّ فرد بحقيقة انتمائه لمجتمعه، ولزوم دفع عجلة تقدّمه وتطوّره ونهضته، إيمانًا بالعلاقة العميقة الوثيقة، وإحساسًا بالمسؤولية تجاه الجماعة، وثقة بأنّ الحقوق محفوظة، توزّع وفق مكيال دقيق يحفظ لكلّ فرد حقّه مهما كان مستواه

الاجتماعيّ، ومهما صغر أو كبر، بل ويحفظ حقوق كل من عاشوا في كنفه وإن لم يكونوا من أتباع ديانته بلا حيف، ومجتمع هذا حاله يكون مجتمعًا مميّزًا بتماسكه، يوصف بالرّقيّ، لأنّه في تطوّر مستمرّ، فأفراده ينعمون بعدله، ويتمتعون بخيراته، فتصبح علاقتهم معه علاقة الأبناء مع الأمّ، يبادلونه وفاء بوفاء وحبًّا بحبّ، فيحرص كل فرد من الأبناء على بناء مؤسّسات مجتمعهم بناءً قويًّا متقنًا، ويحرصون على تطويرها وتحسين الأداء فيها، فالأمّ للأبناء بالرّعاية والعطاء، وهم لها بالوفاء والبناء، وفي هذه الحالة يقدّم المجتمع دعوة عمليّة سلوكيّة لهذا الدّين، فيرغّب غير المسلمين بالالتحاق بهذا النّموذج الحيّ الراقي.

ثانيًا: الرّحمة

إنّ هذا الخلق أساس في بناء المجتمعات، والقرآن يؤصّل هذا الخلق في نفوس أتباعه.

الرّحمة خلق أهل القرآن

ويتحقّق واقعًا مفهوم هذه الصّفة بشموليّتها، من خلال التّعامل مع كتاب الله -تعالى- بحيث يستشعر المتلقّي ابتداءً أنّ القرآن كما يطهّر النّفس من خبيث الأخلاق وسيّئها، فإنّه يؤصّل في النّفس أطيب الأخلاق وأحسنها، فمجرّد تلاوة القرآن ترقّق القلب، وتزرع فيه الرّقّة والرّحمة ولين الجانب، وتالي القرآن يفتتح كلّ سورة بذكر هذه الصّفة، وهو الذي

يتأثر بهذه الصّفة أشدّ تأثّر فهو الربّانيّ الّذي يحرص على أن يتأدّب بالأدب الربّانيّ والرّبّ -سبحانه- يؤدّب عباده على ضرورة لزوم الرّحمة بكثرة تكرار ذكرها بالفاتحة وعند افتتاح أيّ سورة.

ويُراعى الأدب مع كلام الله -تعالى- بحيث يربط جانب الرّحمة عند ذكر الله -تعالى- أو ذكر ضمير عائد عليه، فأهل القرآن يروا ضرورة ذكر البسملة عند تلاوة الآيات التي تُستهلّ بلفظ الجلالة أو ذكر ضمير عائد عليه، فقد كان الشّاطبي يأمر بالبسملة بعد الاستعاذة في قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله: ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٧] ونحوه[1].

حاجة المجتمعات إلى الرّحمة

وللرّحمة حقّ الابتداء والاهتمام، لأنّ الخَلْق يحتاجونها كحاجتهم إلى الماء والهواء، وخصوصًا عند اجتماعهم وتعاملهم، فالرّحمة من أهمّ

(١) ابن الجزري، محمد بن محمد بن محمد أبو الخير ابن الجزري العمري الدمشقي، النّشر في القراءات العشر، المطبعة التجارية الكبرى، تحقيق: علي محمد الضباع، (١/ ٢٦٦).

المرتكزات الّتي تقوم عليها المجتمعات، فاجتماع النّاس يحتمل وجود أشخاص متفاوتون بالقوّة والضّعف، والسلطان والجاه، فلو انتزعت هذه القيمة من نفوسهم لأكل القويّ الضّعيف، ولطغى وتجبّر صاحب السلطان.

ذكر مثال من القرآن يحثّ على الرّحمة مع ذكر أقوال المفسرين

إنّ خلق الرّحمة بهذا الاهتمام المميز به، يحتاج إلى مزيد تأمّل للآيات التي أمرت به وحثّت عليه.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢].

إنّ في هذه الآية من أسباب الاستعطاف والتودّد، ما يجعل العباد يتأمّلون في حقيقة هذا الخالق العظيم الذي ملك السماوات والأرض وخضعت لجبروته وقهره، لا يتحرك فيهما متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، لكنّه يستعطف قلوب العباد الّذين أمكنهم من أنفسهم بإرادة أودعها فيهم، ولكن حثّها ووجّهها لاستقبال الحقّ منه، واتّباع رسله الذين يرسلهم برسالاته رحمة بالعباد، يرشدونهم ويهدونهم سواء السّبيل، والذي لايستقبل هذا الهدى ويعرض عنه يمهله ويترك له الفسحة ليعود إلى الحقّ ويلزم طريقه، لأنّه نجاة في الدّارين.

إنّ في هذه الآية من البشارات ما تجعل المؤمن يحيا حياة البِشْر والأمل،

ويبتعد عن حياة القنوط والقلق، فلمّا كان هؤلاء من المؤمنين ووقع منهم ما وقع من الإساءة، في حال تلبسهم بأفعال السّفاهة كحال الجاهل بالنّتيجة والمآل، كان من الله -تعالى- الرّحيم أن طلب إلى نبيّه الكريم أن لا يعرض عنهم، بل يقرؤهم من الله السلام، وكفى بهذا باعثا على الاطمئنان، والبشارة منه- سبحانه-، إلا أنّه - تبارك وتعالى-، أضاف يذكرهم ويطمئنهم أيضًا بأنّه -سبحانه- قد أوجب على نفسه الرّحمة، وإذا كانت هذه الرّحمة مصروفة للخلق أجمعين، فإنّ المؤمنين به -سبحانه -العاملين بطاعته والحريصين على عبادته، هم أولى الخلق بهذه الرّحمة.

الاجتماع على القرآن يستجلب الرّحمة

إنّ صاحب القرآن يعيش كلّ هذه المعاني مع قرآنه، فبتلاوته يلين قلبه، تسكن نفسه، يطمئنّ لكلام الخالق، تنبعث فيه كلّ معاني الرّقّة والرّحمة التي انسابت إليه من كلام ربّه -سبحانه وتعالى- الّذي يرقّق القلوب، ويبعدها عن القسوة والغلظة، ومجالس القرآن بما يسمّى: حلقات التحفيظ، أو مراكز التحفيظ، ومواطن تدارس القرآن بشكل عام، بيئة خصبة لهذه الصّفة الربّانيّة المباركة، فباجتماعهم على كتاب الله- تعالى- يتلونه ويتدارسونه ويتعلّمونه، ينغمسون فيها، فقد شكّلت عليهم غطاء يحتويهم، كما أن حضور أهل الرّحمة من الملأ العلويّ من الملائكة، يزيد في استمطار الرّعاية والرّحمة لهذا المجلس المبارك المشهود.

تخلُّق طلاب حلق القرآن ومجالس التّدارس بالقيم والمبادئ

إنّ هذه الحلقات واجتماع الدّارسين فيها، صورة مصغّرة للمجتمع الكبير، ففيها يتربّى المتلقّي على القيم والمبادئ، ويتخلّق بأخلاق هذا القرآن العظيم التي لا يستغني عنها المجتمع الكبير بمؤسّساته وأفراده.

وإنّ مؤسّسات المجتمع لا تقوم إلا بوجود هذه الصفة في مؤسّساتها، فكم من أفراد المجتمع إن لم تكن هذه الصّفة ركيزة من ركائزه ضاعوا وفسدوا، إمّا أنّهم هلكوا أو أنّهم أصبحوا عالة وقذرًا وخطرًا على مجتمعهم، فالمجتمع إن لم تكن هذه الرّكيزة وغيرها من الرّكائز المهمّة متحققةٌ فيه، فإنّه يدفع ضريبة التقصير بإيجادها والتّحلي بها والعمل بموجبها، لأنّ الحكيم- سبحانه- حينما يأمر الخَلْق بخُلُق ويوجّههم لسلوك، فإنّه يأمرهم ويدلّهم على ما يعود بالنّفع عليهم في حياتهم الدّنيا قبل الآخرة.

فإنّ في المجتمع أيتاما ومساكين، وأرامل، وشيوخًا، ومرضى ومعاقين وأصحاب عاهات، إلى غير ذلك ممّن لا يتمكن أن يستمر في حياته كما يجب إن لم يجد العطف والرّحمة من قبل المجتمع الذي يعيش في كنفه.

إنّ أولى النّاس بهذا الخُلُق، وأكثرهم تأثّرًا به هم أهل القرآن، الذين رقّت قلوبهم وخشعت لكلامه- سبحانه وتعالى-، ويتمثل أهل القرآن هذا الخلق في حلقات القرآن، حيث تجدهم أرقّ النّاس قلوبًا، وأطيبهم نفسًا، وألينهم جنبًا، ويظهر ذلك جليًّا في تعايشهم مع بعضهم

بعضًا، ومع من يعاملونهم، يستمدّون ذلك من معايشتهم لكتاب الله- تعالى- .

فإذا كان المؤمن يرقّ قلبه بسبب الإيمان، حيث لا اجتماع بين القسوة والإيمان، فإنّه مع القرآن أكثر رقّةً، وأبعد ما يكون من القسوة والشدّة.

لذلك كانت الرّحمة أقرب ما تكون من أولئك القوم الذين اشتغلوا بالرّحمة (كتاب الله)، وخضعوا للرّحمن، وتغنّوا باسميه (الرّحمن الرّحيم)، واقتدوا بالرّحمة المهداة ﷺ ، بعكوفهم على كتاب الله- تعالى-، فيتربّون عليه، كما يبثّونه في نفوس المتعلّمين قولا وفعلا، حيث يمثلون القدوة بتطبيقه، فيرفدون المجتمع بشكل عام بالرحماء الذين يحيون هذا الخلق حياة مع كلّ الخلق: (الإنسان- كل إنسان-، والحيوان، والنّبات، والجماد)، ويرفدون مؤسّسات المجتمع بشكل خاص، بالكوادر المؤهّلة الرّحيمة العطوفة.

ثالثًا: تهيئة الظّروف للإبداع ودعم المبدعين

إنّ المؤسّسات واجهة المجتمعات، وبقدر ما تتقن المؤسّسات عملها، بقدر ما تعطي صورة مشرقة عن مجتمعها، وإنّما تتمايز المجتمعات من حيث الأفضليّة، بقدر ما تؤمّنه لأتباعها من العيش الكريم، وبقدر ما تقدّمه مؤسّساتها من خدمات متميّزة لأبناء المجتمع، ولكلّ من عاش في كنفه.

وكلّ ما امتاز مجتمع بخدمات أكثر تحضّرًا، وفيها من الإبداع والتطوّر، كان الأفضل والأميز، وأصبح أنموذجًا يحتذى به، كما أنّه يصبح محلّ رغبة النّاس للعيش فيه.

ومجتمع هذا حاله، فإنّ مؤسّساته بحاجة إلى أن تكون مميّزة بكوادر تمتاز بقدرات وطاقات ومواهب، قد تمّ إعدادها إعدادًا مميزًا، كما تمّ الاهتمام بما تحمله من مواهب، فوُجّهت التوجيه المناسب لها، كما يتمّ دعمها من قبل قيادة المجتمع.

المجتمع الأنموذج الرّاقي الأفضل

ولنا في مجتمع النّبيّ الكريمﷺ الذي أسّسه في المدينة، أفضل مثال على هذا المقال، فقد كان المجتمع المثاليّ الذي لم ترَ الدنيا مثله، حيث تمّ تأسيسه وفق منهاج الله- تعالى-، وتمّ بناؤه بإشراف المبلغ عن الله- تعالى- مؤيَّدا بالوحي، فكان الأنموذج الفريد للمجتمع الربانيّ الّذي أراد الله له أن يكون، وقد مارس نبيّ الهدى ﷺ في قيادته ما جاءه من التوجيه، وما أرشدته إليه آيات الذّكر الحكيم، التي أنزلها الباري- سبحانه- منهاجا ودستورا للعالمين، فقد تخلّق ﷺ بالقرآن، ووظّف هذا الخُلق في دعوته وقيادته، ومعاملاته، وسائر شؤون حياته.

ومع أنّ النّبيّ الكريم ﷺ، قد خُصّ بأنّ الوحي يوجّهه ويسدّده، إلا أنّه القدوة، فلذلك مارس كلّ ما يحتاج الإنسان أن يمارسه، ليكون قدوة

لجميع أفراد الأمّة، فقد مارس دور الزّوج والأب وابن العشيرة والرّحم والمعلّم والمتعلّم، والمعطي والآخذ، والمقاتل والمعاهد، والبائع والشّاري والرّاهن... إلى غير ذلك من الأمور، ليكون قدوة للجميع -صلوات ربّي وسلامه عليه- .

وعند الحديث عن أنّ خلقه القرآن، ذلك أنّه كان يتعلّمه ويفهم الخطاب عن ربّه، ليؤدّي دور الدّاعي إليه، ويقوم بذلك أحسن قيام، وعلى الوجه الذي يرضي الله- تبارك وتعالى-، فكلّما تلقّى عن الله- تعالى-، ازداد علمًا وازداد ثباتًا، ووجد نفسه يحيا مع هذا القرآن، يحياه بفكره وبفهمه ﷺ ويتطوّر بفضل القرآن يوما بعد يوم، فكلّما جاءه توجيه من الله- تعالى- التزمه وعمل بمقتضاه، فهو في تطوّر مستمرّ.

وفي مجتمعه ﷺ من أصحاب المواهب والإبـداع، ربّاهم ﷺ على عينه، وما زال يوجّههم ويرعاهم، ويشجّعهم ويحفّزهم للارتقاء بمستوى الإبداع كلٌّ بحسب تخصّصه الذي أبدع فيه.

فمنهم من أبدع بالرّأي والمشورة، ومنهم من أبدع بالشِّعر، ومنهم من أبدع بالدّعوة، ومنهم من أبدع بقراءة القرآن، ومنهم من أبدع بالحفظ، ومنهم من أبدع بالفهم والاستنباط، ومنهم من أبدع بالقيادة، ومنهم من أبدع بالإمامة، ومنهم من أبدع بالكتابة، ومنهم من أبدع بالإمارة، ومنهم من أبدع بالتّجارة...، وهكذا، والمتتبّع لسيرته ﷺ يدرك مدى اهتمامه ورعايته للمبدعين.

إعداد النّبيّ ﷺ للنّخب التي تبني المجتمع

يُستفاد من سيرته ﷺ الاقتداء والتأسّي، حيث إنّ القائد الفذّ يحرص على تميّز أتباعه، ومن يقومون ببناء مؤسّسات مجتمعه، فقيمته ومنزلته بين المجتمعات تعتمد على نجاح مؤسّسات بلده وتطوّرها، وقيامها بدور متميّز.

فقد تلوّنت أشكال المواهب والإبداع في المجتمع الذي قاده النّبيّ الكريم المسدّد، وقد اهتمّ النّبيّ الكريم- صلوات ربّي وسلامه عليه- في تأصيل كلّ شكل من أشكال الإبداع في نفس صاحبه، وتحفيزه لمزيد الاهتمام بهذه الموهبة، وليكون مختصّا في هذا الإبداع.

ذكر نماذج من المبدعين في عهده ﷺ

معاذ بن جبل -رضي الله عنه-

إنّ ممّن أبدع في تلاوة كتاب الله، وتولّى توجيه وتنمية إبداعه رسول الله ﷺ الصحابيّ الحبيب الأريب المبارك: معاذ بن جبل الخزرجيّ الأنصاريّ، هذا الصحابيّ الجليل يعدّ من رجالات الدّولة الّذين أعدّهم النّبيّ الكريم ﷺ، لحمل مشروع الأمّة، ولقيادة وتطوير مؤسّساتها.

زيد بن ثابت- رضي الله عنه-

أحد رجالات الدّولة، ومن أعيانها، تربّى على القرآن، ونضج معه آية آية، وقد تميّز بالضّبط والإتقان حتّى كان مبدعا من المبدعين الذين تربّوا على مائدة القرآن، ونضجوا مع آياته، وارتقوا علما وفهما وذوقا، فكان- رضي الله عنه- حافظا ضابطا، وكاتبا متقنا، وترجمانا حاذقا، بامتياز.

ولا غرابة إذا أعدنا هذا الضّبط والإتقان إلى تأثّره بكتاب الله - تعالى-، وأنّه سببٌ لما اتّصف وتميّز به هذا الصّحابي المبارك، فقد بلغ من تأثّره بالكتاب الكريم مبلغا عظيما.

له موقف مميّز مع قضيّة الخلافة، وموقفه ذاك لا يصدر إلا عمّن تمكّن الفقه بين جنبيه، ووعى مصلحة الجماعة، وما يعود عليها بالنفع.

عبد الله بن عبّاس -رضي الله عنهما-

هذا الإمام الحبر الربّانيّ القرآنيّ، الذي تربّى على القرآن وحبّه، وأبدع في العلم وحسن الفهم، وقد نال رعاية وعناية خاصّة كريمة من المعلّم الأسوة- صلوات ربّي وسلامه عليه- ، فقد تعاهده منذ نعومة أظفاره، فما يزال يوجّهه ويحفّزه، حيث أتحفه بتوجيهات كريمة ونصائح عظيمة خصه بها- رضوان الله عليه-، كما أكرمه بدعوات خاصّة، تحفّزه للإبداع بالجانب الذي كان لديه الملكة والموهبة للتّميز فيه.

وقد تأثر -رضي الله عنه- منذ صغره باسلوب النّبيّ الكريم ﷺ في تعامله مع القرآن العظيم.

اهتمام رأس الدّولة بالمبدعين

وقد اهتمّ الخلفاء الرّاشدون بهؤلاء الخيرة المبدعين، واستمرّ نفعهم وتسخير إبداعاتهم خدمة لمجتمعهم لمّا اهتمّت الدّولة بهم، فالقاضي المتقن المبدع في قضائه؛ لم يُحرم المجتمع من علمه وفقهه، والذي امتاز بالطّباعة والتّرجمة استمرّ خيره، وعمّ نفعه، فكلّ رأسٍ للدّولة يوكل إليه هذه الوظيفة، وهو يزداد تألقًا وإبداعًا؛ وتميّز بمواقف جريئةٍ موفّقة خدمت الأمّة وقضاياها الهامّة، والمفسّر المتقن استمرّت رعاية الدّولة له واهتمّت بإبداعه، ودعمت مواقفه التي أسهمت في الحفاظ على مصلحة الجماعة.

والجامع المشترك بين هؤلاء جميعًا: إقبالهم على كتاب الله- تعالى-، ورعايتهم من قبل رسول الله ﷺ.

وأريدَ لهم أن يكونوا حاضرين في المواقف التي يتصدّى لها العظماء، الذين تمكّنوا ممّا يدعون إليه ويدافعون عنه.

والمجتمع حتّى يحقّق الرقيّ وينهض بمسؤولياته تجاه أبنائه، لا بدّ أن يُبنى على المؤسّسات، التي تُبنى بالكوادر والكفاءات من أبناء المجتمع، فيأخذون مواقعهم في الدّوائر التّابعة لهذه المؤسّسات يخدمون مجتمعهم، يلبّون حاجته من البناء والخدمة والحماية والتطوير، فإذا كان صاحب

المسؤولية في مؤسّسته أو دائرته، يدرك أنّه صاحب أمانة، وأنّه موجود لخدمة أبناء مجتمعه، فالمراجعون للدّوائر والمؤسّسات، هم أصحاب حاجة، ويطلبون خدمة الموظفين هناك، والموظّف وُجد لخدمتهم، فإن كان هذا الموظّف قد رُبِّي على مبادئ القرآن وتوجيهاته وهداياته، فاكتسب الإتقان، واندفع نحو الإبداع، وعرف عظم قيمة العدل، وخشي الميل عنه ونفر من الحيف والجور، ولو كان المراجع وصاحب الحاجة من ذوي القربى، وكذلك إذا تحلّى بالرّحمة وألان جانبه للخلق، أدّى الخدمة المرجوّة منه، والتي أُسندت إليه مهما صغرت أوكبرت خير أداء، وقام بواجبه أحسن قيام، فتحقّق المؤسّسة بهذا النّوع المميّز من الكوادر معنى وجودها، فتسهم في خدمة المجتمع، وتشترك مع باقي المؤسسات في نهضته ورقيّه.

إنّ القرآن قد سبق العلم الحديث فيما يسمّى بالتخطيط والإدارة، الذي يتغنّى النّاس به في هذه الأيّام، فالقرآن تربيته تربية عمليّة ماديّة تعتمد على القيمة الروحيّة، لترتبط حركة الإنسان في هذه الدّنيا بالقيم الروحيّة التي تُعد منطلقًا لكلّ التصرفات ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فالقرآن يؤصّل في نفوس أتباعه حسن التخطيط، وإدارة الذّات، وإدارة المهمّات، وصحّة المدخلات، للوصول إلى صحّة المخرجات.

خلاصة

إنّ هذا القرآن هو حياة الخلق الحقيقيّة، وهو روحهم وبسببه تتحقّق الحياة، وهو نورهم الّذي يحيون بهداه، والخلق أحوج ما يكونوا للبحث فيه، والوصول إلى هداياته وتوجيهاته.

كما أنّ في القرآن كلّ تفاصيل حياة الإنسان، لكي يستقرّ في النّفس البشريّة أنّ الحياة الحقيقيّة التي يجب أن يحياها بنو آدم مودعة في هذا الكتاب العظيم، فكما أنّ الإنسان أساس بناء المجتمع وهو يتكوّن من جسد وروح، وفي إيجاده وتكوينه وما أُودع فيه من خصائص وإمكانات دون سائر المخلوقات آية، وقد أراد الله له أن يؤدّي دوره في الحياة ضمن الجماعة، فإنّ الحرف هو أساس بناء القرآن العظيم، وهو يتكوّن من جسد وروح، فكما أنّه لفظ فإنّ له معنى، والحرف بما فيه من الخصائص والصّفات والمعاني آية، وكذلك فإنّه يؤدّي دوره ضمن الحروف والألفاظ مجتمعة.

إنّ تجويد القرآن العظيم صناعة علميّة، كما أنّه أداء عمليّ، وهذه الصّناعة لها قواعدها وضوابطها الخاصّة بها، الّتي تهتمّ بإخراج كلّ حرف من مخرجه، مع مراعاة صلة الحرف بما قبله وما بعده في كيفيّة الأداء، وهوعلم لا يُتحصّل إلا بالممارسة والمران، ومحاكاة من يجيد القراءة.

وكذلك فإنّ التفسير فيه شَبَهٌ من علم التّجويد، فهو صناعة علميّة، لها قواعدها وأصولها، تهتمّ بمعنى الألفاظ في موضعها، مع مراعاة صلة كلّ

لفظة بما قبلها وما بعدها، وهذا العلم لا يُتحصّل إلا بالممارسة والمران، وفهم أسلوب القرآن، وفهم الألفاظ في سياقها، ومحاكاة من يجيد التفسير والبيان.

وكلاهما توجيه من الباري- سبحانه- إلى الخلق، لينظّم حياتهم، وليخرجهم من الظّلمات إلى النّور، ويهديهم سبل السّلام.

إنّ إتقان التّلاوة وحسن الفهم لألفاظ القرآن، يوصلان رسالة هذا القرآن العظيم، ويبلُغان مع المتلقّي إلى هدايات القرآن، فتتحقّق للمتلقّي بموجب ذلك معنى الحياة المراد من البشر أن يحيوها، حياة منضبطة وفق نظام أراده الله- تعالى- لخلقه.

::: تم بحمد الله :::

المحتوى

مقدمة	٥
تمهيد	٩
المبحث الأول: التّلاوة	**١٣**
المطلب الأوّل: تعريف التّلاوة والتّرتيل والتّجويد	١٣
المطلب الثاني: آثار إتقان تلاوة القرآن على الصّحّة النّفسيّة	١٨
أثر القرآن على صحّة النّفس والبدن:	١٨
المطلب الثّالث: آثار إتقان تلاوة القرآن على السّلوك	٢٢
من السّلوكيات الّتي يعزّزها القرآن:	٢٢
المبحث الثاني: التّفسير	**٢٩**
المطلب الأوّل: ضرورة فهم القرآن	٢٩
أوّلا: أهمّيّة فهم القرآن:	٢٩
ثانيًا: الحاجة لفهم القرآن	٣١
المطلب الثّاني:آثار حسن فهم القرآن	٣٣
أوّلا: تفعيل دور العقل	٣٣
ثانيًا: تكوين العقليّة الموضوعيّة الّتي تعتمد المقدّمات للوصول إلى النّتائج	٣٤

ثالثًا: الارتقاء بالعلم وتعظيم شأنه	٣٥
رابعًا: الاجتهاد و الإبداع	٣٥
المبحث الثالث: التّدبّر	**٣٧**
المطلب الأول: مفهوم تدبّر القرآن	٣٧
المطلب الثّاني: آثار تدبّر القرآن	٣٨
الأوّل: سلامة القلب	٣٩
الثّاني: التعلق بالآيات ومحبّتها	٤١
الثّالث: الاستنباط و حسن الفهم	٤٢
الرّابع: الوقوف على الحقائق العلميّة	٤٣
الخامس: صلاح العمل	٤٤
المبحث الرابع: التّزكية	**٤٥**
المطلب الأول: أثر إتقان التّلاوة وحسن الفهم في الفرد	٤٥
أولاً: أثرهما في تزكية النّفس	٤٥
من الأخلاق التّي تجتمع لمتعلّم القرآن	٤٦
ثانيًا: أثرهما في ضبط السّلوك	٦١
المطلب الثّاني: أثر إتقان التّلاوة وحسن الفهم في تزكية وبناء المجتمع	٦٧
أولا: الحبّ في الله بين أفراد المجتمع	٦٧
ثانيًا: التّعاون	٧١

ثالثًا: الإنفاق والبذل ٧٥
رابعًا: الولاء والبراء ٧٩
خامسا: الحياء ٨٣
سادسا: الصّبر ٨٨
المطلب الثّالث: أثر إتقان التّلاوة وصحّة الفهم في بناء مؤسّسات المجتمع ٩١
ثانيًا: الرّحمة ١٠١
ثالثًا: تهيئة الظّروف للإبداع ودعم المبدعين ١٠٦
ذكر نماذج من المبدعين في عهده ﷺ ١٠٩
الـمحتوى ١١٥